A Z H E R   J I R J E E S



أزهر جرجيس

فوق بلاد السواد

قصص وحكايات ساخرة


مكتبة
الفكر الجديد

فوق بلاد السواد



فوق بلاد السواد/ قصص وحكايات ساخرة
أزهر جرجيس / مؤلف من العراق
الطبعة الأولى، 2015



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بيـروت - لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف : ديمو برس / بيروت، لبنان
لوحة الغلاف: CARAS IONUT
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

ISBN: 978-614-419-623-6



قصص وحكايات ساخرة

أزهر جرجيس

فوق بلاد السواد






مكتبة
الفكر الجديد

يومٌ بدون سخرية هو يومٌ ضائع .

تشارلي شابلن




مكتبة
الفكر الجديد

يُحكى أنّ مريضاً جاء إلى طبيب الأمراض النفسيّة ، وقال له :

- دكتور ، أنا مريض ، وقد فقدت الحياة طعمها بالنسبة لي ، فحين أتذكر الجائعين أفقد شهيتي ، وحين أتذكر العراة أبرد . إنني أتّهم نفسي بارتكاب كل الجرائم . إنّ يديّ هاتين تذكران برودة قبضة المدية ، وكل رصاصة تنطلق من البندقية تخترق قلبي . . كل جرائم المجتمع أثقلت كاهلي بعبئها . . لم أعد أضحك .

فما كان من الطبيب إلاّ أن أخذ المريض من كتفيه ، وقرّبه من النافذة . . أزاح الستارة ، وأشار إلى الإعلان المعلّق في الشارع ، والذي يمثّل أحد مهرّجي السيرك .

- هل ترى هذا المهرج يا عزيزي؟ نصيحتي إليك أن تذهب إلى حفلاته مساءً ، ولسوف تتخلص من كل سأمك وكربك ، وتبدأ بالضحك ، وتشعر بطعم الحياة من جديد .

فيجيب المريض ، وقد أطرق رأسه :

- لكنني يا دكتور ، أنا المهرّج نفسه .

عزيز نيسين




مكتبة
الفكر الجديد

سائق الجنائز

كان جالساً على الأريكة يقلّب القنوات الإخبارية بجهاز التحكّم الذي لا يفارق يده . لم يسرّه ما شاهد فأغلق التلفاز وتنهّد . أعاد رأسه إلى الخلف . أطبق عينيه وزفر في الهواء ، فتراءت أمامه جنازة أبيه تحملها سيّارة مكّي الأقرع .

كانت صديقته النرويجيّة ، كاترين منشغلةً في المطبخ . أعدّت له شراب القرفة الذي يحبّه ، مع قطعة بسكويت هشّ . وضعته على الطاولة أمامه وجلست قربه . مسحت على كتفه وقالت :

– القرفة حضرت ، استيقظْ يا سعيد .

– لست نائماً يا حبيبتي ، ردّ سعيد .

تناول قدح القرفة وأدناه من فمه . شمّه شمّةً طويلة وتنهّد : «الله ، كم ريحته زاكية!» ثم شرب قليلاً وقال :

– أتدرين يا كاترين؟

– لا . . لا أدري ، عمّاذا يا سعيد؟

– عن مكّي الأقرع الذي تراءى له الجنّ في الطريق؟

اعتدلت كاترين في جلستها . وضعت ما في يدها على



الطاولة وقالت : «لم أسمع به من قبل ، لم تحدّثني عنه يا صديقي ، أقرع وجنّ؟! يا ربّاه! بالله عليك ، احكِ لي هذه الحكاية فقد شوّقتني» .

قال سعيد : «لا بأس ، لا بأس يا عزيزتي ، أدني منّي ، فهي حكاية مخيفة» .

دنتْ كاترين فقال :

كان في القرية سيّارة واحدة ؛ هي سيّارة مكّي الأقرع . كانت نوع تويوتا كْراون موديل ١٩٨٣ . اشتراها مكّي بثمن البستان الذي باعه بعدما لم يعد للبساتين حاجة آنذاك .

سيّارة مكّي حلوة وسريعة . كانت تقطع المسافة بين القرية والمدينة برمشة عين ، لكنّها تعبت .

- ما الذي أتعبها؟ سألتْ كاترين .

- أتعبتها الحرب يا صديقتي ، رد سعيد .

- كيف؟

- بعدما اشتدّ وطيس الحرب بين العراق وإيران ، كثر العائدون من شباب القرية . كانوا يعودون مقمّطين بعلم الموت ذي الألوان الأربعة . كان المأمور يدخل بالجنازة إلى سوق القرية من جهة الجسر ، فنتراكض خلفه ولا ندري أمام أيّ بيت سيقف . كانت النسوة يتصارخن على الأبواب وكلٌ منهنّ تقول في سرّها : «دخيلك ربّي . . جزّيها» . فتتخطّى الجنازة الأبواب باباً باباً حتى تقف عند باب قليل الحظّ ، فتهجمٌ بيته .



كان هذا الطقس يتكرّر كل أسبوع يا عزيزتي ، فليس في قريتنا تاجر ولا طبيب ولا مقاول يحمي نفسه من الحرب . الكل كانوا جنوداً ساقهم حظّهم العاثر إلى سواتر الموت ، فعادوا تلفّهم راية الدم بنجومها الثلاث . وبعد حفلة الصراخ والعويل واللطم ، يأتي دور مكّي الأقرع . كان يصفّ سيّارته الكراون أمام الدار المفجوع أهلها ، ويحمل عليها الجنازة . كان يلفّها بالحبل عدة لفّات كي لا تفلت . إلى الآن وصوت التابوت في أذني ، كان يصدر صريراً كلما شدّ مكّي الحبل ، وسط صراخ النسوة وبكاء الأطفال .

كنت صبيّاً أحفظ جملة تردّدها أمّهات الشهداء بعدما تنطلق سيّارة مكّي . كانت الأم تخرج رأسها من باب الدار عنوةً وتصيح خلف ولدها : «الله وياك يُمّه» ، فأعلمُ حينها بأنّه لن يعود . يطير به مكّي نحو مقبرة وادي السلام .

ذات يوم كانت سيّارة مكّي تشقّ طريقها نحو المقبرة ، وكانت السماء ممطرة . لم يكترث مكّي للمطر ، فهو سائق متمرّس وقد حفظ الطريق جيّداً . أدار جهاز الراديو على إذاعة بغداد ليستمع إلى نشرة الأخبار ، فكان المذيع يقرأ بياناً يعدّد فيه خسائر العدو في معركة «تاج المعارك» شرق البصرة . كانت معركة عنيفة سقط فيها المئات من الجنود العراقيين والإيرانيين على حد سواء .

أنهى المذيع بيانه الحماسيّ بأنّ قواتنا المسلحّة لم تتلقّ أية



خسائر تذكر . أغلق مكّي المذياع وهو يقول : «وهذا المشدود على السيباية؟! فرخ دجاج يا ابن الكلب؟!» .

توقّف المطر بعد ساعتين ، لكن الشمس قد غابت والظلام بدأ يغلّف المكان . نظر مكّي إلى رفيقيه فوجدهما نائمَين ، فدخل الخوف إلى قلبه سيما وأنّه سمع غير مرّة بأنّ المكان الذي وصل عنده مسكون .

- مسكونٌ بماذا؟ سألت كاترين .

- بالجنّ ، ردّ سعيد ، فتخشّبت كاترين ودنتْ منه أكثر . لصقت صدرها على كتفه وقالت : «أكملْ ، أكملْ» .

استطرد : كان مكّي خائفاً يترقّب ظهور الجنّ أمامه في الطريق يا عزيزتي . وفي الأثناء تلقّى صفعة على خدّه الأيسر . كان زجاج السيّارة مفتوحاً ، نسي أن يغلقه بعدما انتهى من تدخين سيجارته . عندما تلقّى مكّي الصفعة تجمّد وصارت قدماه ترتجفان من الخوف ، فتلقّى صفعة ثانية .

- يالله! وماذا فعل؟

- لا شيء ، كاد يفعلها على نفسه من الخوف ، حتى إنّ يده لم تطاوعه على غلق النافذة وإيقاف الصفعات . لم يكن أمام مكّي تلك اللحظة سوى الذِكر ، فاستحضر تعاويذ الحفظ وطرد الجنّ ، وبدأ يتمتم بها . كان من بينها تعويذة تستوجب أن يتفل على يمينه وعلى شماله حالما ينتهي .

- لماذا؟!



- لا أدري ، هكذا تعلّم في صباه . فقرأها والتفت إلى اليمين وتفل ، ثم التفت إلى الشمال وتفل ، فكانت المفاجأة .

- ما هي؟

- عندما تفل مكي على الشمال ، شاهد طرف الراية متدلّياً من التابوت . كان مبلّلاً وعندما تدفعه الريح يصفع خدّ مكّي ، فيظنّه المسكين جنّياً .

ضحكت كاترين بهيستيريا ، ثم سقطت مغشيّاً عليها ، فخالها سعيد قد ماتت لكنّها سرعان ما فاقت ، ثم رفعتْ رأسها وسألتْ :

- ومكّي الأقرع؟ أين حلّ به الدهر يا سعيد؟

- مكّي ذهب إلى ربّه يا كاترين .

- والكراون؟

- الكراون لازالت تحمل الشباب إلى المقابر . . فقط تبدّل شكلها . . موتي وخلصيني!



غريب المؤمن

اسمي غريب ، وتناديني أمّي كعادة أهل القرى في تحقير أبنائهم «اغْريّب الأملح» . سقط رأسي دون إرادتي في قرية يطلقون عليها قرية المؤمنين ، وجاءت النسوة في اليوم التالي ليباركن لأمّي ولادة مؤمنها الصغير ، اغريّب .

كنت مشاكساً ، فَقَستُ عين أمي عندما حاولتْ أن تعيد يدي إلى القماط بعدما أرضعتني . دلقتُ كوب الشاي الساخن على صدر أبي وهو يجلسني على حجره . وعندما بلغت الرابعة من عمري ، فطمتني أمي عنوةً ، فكسرتُ زجاج النافذة الوحيدة في دارنا اعتراضاً على الفطام «المبكّر» . في السادسة عشقت ابنة الجيران ، حنان الحلوة ، ولكنّي رأيتها ذات نهار على السطح تتبادل القُبَل الهوائيّة مع جارنا ، ميثم ، فأشعلت فتيلة بعدما غمستها في النفط ، ثم رميتها على بيتها . أحرقت نخلتهم الوحيدة ، وكادت النيران تلتهم الدار كلها .

تنبّه أبي إلى سلوكي مبكراً وقرّر أن يربّيني على طريقته الخاصة ، فأدخلني دون إرادتي في مدرسة الملاّ عرفان لحفظ القرآن . قال بأنّ عصا الدين ستربّيني وتهذّب سلوكي . وبعد



خمسمائة وخمس وخمسين جلدة على مؤخرتي الصغيرة ، حفظت جزء عمّ وبعض أحكام الحلال والحرام . وبعد سنوات تخرّجت من مدرسة عرفان مؤمناً ، وقد تبدّل اسمي من اغريّب الأملح إلى غريب المؤمن . وضعوا على رأسي يومها لفافة قماش بيضاء صغيرة وباركني الملاّ عرفان بماء من فمه كان قد بصقه في قدح ماء وقال : «اشرب يا بُنيّ هداك الله» . أغمضت عينَيّ وشربت الماء المبارك وحمدت الله على نعمة العلم والإيمان .

في اليوم التالي بدأت رحلتي مع الإرشاد والهداية . كنت كل صباح أخرج إلى السوق ، أمرّ على الدكاكين لألقي التحية وأسلّم على أصحابها وأبارك لهم رزقهم . كنت أتأبّط دفتر الحلالات والحرامات وأحمل بيدي مسبحة طويلة ، بينما يدور السِواك في فمي من الصباح حتى المساء . وحين يسدل الليل على بيوت القرية ، يجتمع الناس في المسجد بانتظار الموعظة اليوميّة التي سألقيها على مسامعهم .

كنت ألج المسجد وَقوراً ، لا أتكلّم إلاّ بالمثاقيل ، ولا أضحك ، فالضحك يُذهب الوقار بحسب معلّمي ، الملاّ عرفان المؤمن . كان أهل القرية يتهامسون عندما يسمعون بوصولي إلى المسجد . كانوا يهمسون لبعضهم البعض : «وصل المومن . . وصل المومن» فأقول في سرّي : «وصل اغْريّب . . وصل اغريّب» .

نعم ، نعم ، نعم . . . كان أهل القرية يرَونني «غريب المؤمن» لكنّي ورغم العمامة التي كانت تعلو هامتي ، واللحية



التي بدأت تلوّن ذقني ، لم أزل أراني «اغْريّب الأملح» ، أذوب عندما أشاهد خيال فتاة ، وأطرب لسماع ناظم الغزالي . كان قلبي يتراقص كلما سمعت أغنية «مَيحانه . . مَيحانة . . غابت شمسنا . . الحلو ما جانه» من المذياع المرصوف على أحد رفوف المقهى الوحيد في القرية . كان صاحبها ، سعدون السمين قد أطلق عليها : «مقهى الزعيم» تيمّناً بالزعيم عبد الكريم قاسم ، الذي كان يطلّ بابتسامة عريضة من صورة كبيرة معلّقة على الجدار . وكنت كل يوم أذهب هناك لأعظ روّاد المقهى وأتلو عليهم عقوبة سماع الأغاني ولعب الدومينو ، يوم القيامة . كنت عن عمدٍ أطيل المكوث كي يتسنّى لي سماع الأغنية كاملة ، وأمتّع ناظرَيّ بقطع الدومينو وهي تشكّل ما يشبه القطار الصغير . كان لصوتها دويّ وهي تنزل بقوّة على المنضدة . كان سعدون السمين يتصدر المشهد وينزل الحجر بقوة وهو يهتف : «ربطتْ بالدوشيش» .

كنت أعشق الدومينو وأحتفظ بواحدةٍ سرقتها من بيت خالي السكّير ، لكنّي لم ألعبها ولم أجد من يعلّمني على دروبها ، فأنا في نظر الجميع مؤمن طازج لا يحق لي أن ألوّث روحي بهذه الممنوعات التي أعظ الناس بالإمساك عنها .

حسناً . . سوف لن أطيل عليكم الحكاية . ذهبت ذات نهار إلى بيت معلّمي ، الملاّ عرفان وسألته عن السرّ وراء تحريم الدومينو ، فقال :



- ألمْ أعلّمك يا حيوان بأنّ كل ما يُلهي عن ذكر الله حرام؟

- بلى ، علّمتني ذلك .

- والدومينو كذلك ، فلمَ تسأل إذن؟

- هاا ، إي والله صحيح .

- يبدو أنّ إيمانك قد ضعف هذه الأيام ، وبدأتْ تستهويك مجالس اللهو!

- ماذا تقول؟! معاذ الله .

- إيّاك أن ترتاد المقاهي مرةً أخرى . . اذهبْ الآن إلى المسجد وصلّ ركعتين لوجه الله علّه يغفر ذنبك . . هيّا اذهب يا حيوان .

- صار مولاي .

خرجت من بيت معلّمي حانقاً ، وعند الباب التقيت سعدون السمين ، صاحب هتاف «ربطت بالدوشيش» .

- ما الذي تفعله هنا يا سعدون؟! سألته متعجّباً .

- جئت لنتحاسب ، أجاب .

- مع مَن؟

- مع الملاّ عرفان .

- بماذا تتحاسبان ، وما علاقتك بالملاّ؟!

لم يجبني سعدون واكتفى بابتسامة متصنّعة ، فأعدت عليه السؤال :



- أجبني ، ما علاقتك بالملاّ ، وبماذا تتحاسبان؟!
- يبدو أنّك لا تعلم شيئاً يا شيخ غريب ، سأسرّك أمراً ، ولكن هل تعدني بأنّك لن تفشيه؟
- أعدك . . قُل لي ما الأمر؟
- المقهى تعود للمُلاّ .
- أيّ مقهى؟!
- مقهى الزعيم .
- ما بها؟
- يملكها المُلاّ .
- أيّ مُلاّ؟
- ما بك يا غريب؟! ملاّ عرفان يملك مقهى الزعيم . . هذه كل الحكاية .

لم أصدّق ما قاله لي سعدون السمين عن معلّمي ، فقبل نصف دقيقة كان الأخير يوبّخني لأنّي أرتاد المقاهي ، فقلت :

- سعدون . . بالله عليك أعد عليّ ما قلته للتوّ ، فقال :
- مقهى الزعيم التي نلعب فيها الدومينو يملكها عرفان المؤمن .
- ربطت بالدوشيش ، هتفتُ .



هبوط اضطراري

ذات يوم من أيّام تموز اللاهبة قرّر نبيل أن لا يكون نبيلاً . قلّب الفكرة في رأسه وحسم أمره ، بينما كانت نسمة تغطّ في نوم عميق .

المسكينة ، كانت ثقيلة النوم ، لم تشعر بحركة زوجها وهو يغلق الباب مخلّفاً صريراً كافياً لإيقاظ دُب . منذ البارحة ونسمة نائمة . لم يوقظها انقطاع التيار الكهربائي المتكرّر وتبدّل الجو من البارد إلى الحار ، ولا تقلّب زوجها في الفراش ذات اليمين وذات الشمال . خرج غير مرّة لتدخين سيجارة في الهواء وعاد دون أن تشعر به .

تململُ نبيل وسهاده لم يكونا بسبب الحر الشديد ، ولا لشخير نسمة الذي يصل إلى الجار التاسع . كان يقلّب في رأسه أمراً ما . لا أدري ما هو ، لكنّه ، لا محالةَ سيُغضب نسمة .

نعم . . نعم . . تذكّرت ، كان نبيل يفكّر بالرحيل ، فقد كان عازماً عليه منذ زمن ، لولا نسمة ، فهو لا يدري ما يفعل بها وإلى مَن سيوكل أمرها قبل أن يرحل . نسمة مقطوعة من



شجرة . مات أبوها في حرب الخليج الأولى ولحقته أمّها في حرب الخليج الثانية بعدما سقط صاروخ كروز أمريكي على بيتهم وجعله أثراً بعد عين .

تربّت نسمة في ملجأ للأيتام ببغدادَ كما نبيل ، فكلاهما أبناء ملاجئ ، طحنت الحروب أهلهم وتركتهم للريح . وعندما كبروا تلاقفتهم شوارع بغداد ، يلقّطون أرزاقهم على أرصفتها .

كان نبيل يعمل في شارع الرشيد . يحمل على كتفه صندوقاً خشبيّاً ويدور على المقاهي ، يلمّع أحذية المتقاعدين مقابل دنانير قليلة تغطّي نفقاته اليوميّة . كان يسكن في فندق آيل للسقوط في محلّة الأمين ، أغلب نزلائه من الباعة اليوميين والمتشرّدين والسكارى . أما نسمة فلم تفارق قدماها سوق الخضار في الميدان ، منذ أن أُغلقتْ باب دار الأيتام بوجهها وصارت لا تتسع للمراهقات في سنّها . كانت تبيع أكياس النايلون المعادة وتنام على الرصيف دون أن تخشى التحرّش الجنسي ، فنسمة كانت بدينة جداً ، ولا يجرؤ صبيٌّ على الدنو منها ، حتى إنّها كانت تضربهم إذا ما زاحموها على زبون تبيعه كيساً .

كان الكل يخشى غضب نسمة ، سيما عندما يصفونها بالبدينة . كانوا يطلقون عليها لقب «الدبّابة» فتشتاط غضباً وتلاحقهم بالحجارة حتى تخرجهم من السوق . كانت تنام تحت چنابر الباعة ، وجيبها مليء بالصلابيخ تحسّباً لأيّ طارئ .



ذات يوم كانت تلاحق زبوناً لتبيعه كيساً يحمل فيه أغراضه : «عمّو . . علاّگة . . عمّو ، الله يخلّيك إشترِ علاّگة» فلكزها الرجل بعدما تضايق منها ، وشتمها : «إمشي ، أنعل أبوچ لابو اللّي متيّهچ بالشارع» ، فما كان منها إلاّ أن تراجعت خطوات إلى الخلف وأخرجت صلبوخاً كبيراً من جيبها ورمته به بقوة : «أنعل أبوك لابو شرفك يا ابن الكلب» ، فسقط الصلبوخ على رأسه الأقرع وأدماه .

هكذا عاشت نسمة مشرّدةً حتى كبرت وتزوّجت من صبّاغ الأحذية المشرّد ، نبيل . تزوجا بعدما أعانهما فاعل خير ، دفع نفقات الزواج واستأجر لهما غرفةً قذرة على سطح عمارة قذرة في الباب الشرقي وسط بغداد .

كانا كل صباح يخرجان لبيع السجائر وورق الكلينكس وأعواد البخور . يقفان في تقاطعات الطرق عند الإشارات الضوئية ، ويدوران على المطاعم والدكاكين من الصباح حتى المساء . وفي المساء يخرج نبيل للعمل أجيراً في أحد بارات بغداد . كان يغسل صحون المزّة وينظّف الحمّامات بعدما يرشّها السكارى بالبول والقيء . بينما تنام نسمة على السرير وحيدة متعبة من الدوران في الطرقات طوال النهار .

كان سريراً مزدوجاً يكفي لشخصين ولكن ليس في حالة نسمة ، فهي بدينة ومتغطرسة لذلك تنام وحيدة . أما زوجها فكان عليه أن يفترش الأرض وينام كي لا يضطرّها إلى العودة



إلى استخدام سلاحها الفتّاك الذي كانت تسكت فيه صبيان السوق ؛ الصلابيخ المدبّبة .

حياة نبيل مع نسمة كانت أشبه بالكابوس المريع . بعد سنة من زواجهما أصبحت أكثر بدانة وأكثر كسلاً . رمت أكياس النايلون بوجهه وغادرت مهنتها التي لا تجيد غيرها وجلست في البيت . قلتُ في البيت؟! من المؤكد أنّي قصدت الغرفة القذرة على سطح البناية القذرة في الباب الشرقي .

وفي ذلك اليوم التمّوزي اللاهب قرّر نبيل أن يفرّ منها ، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ . . هذا ما كان يشغل باله ولم يقدر على كتمانه ، لذلك فاتح كاكا حمه ، صاحب البار ، بالأمر . كان الزبائن قد انفضّوا ، فأنهى نبيل عمله . قلبَ الكراسي ووضعها فوق المناضد وغسلَ الأرض . ثم وقف ذليلاً أمام كاكا حمه ليستلم أجره اليومي . قال له حمه وهو يدسّ في يده ألفَي دينار ، أجرة ليلة كاملة :

- شنو بيك كاكا؟

- ما بي شي كاكا ، بس . .

- بس شنو؟ إحچي ، بيك شي؟ رايد شي؟

- والله كاكا ، أريد أسافر لليونان .

ضحك كاكا حمه وهو يستمع لطلب غاسل الحمّامات ، نبيل أفندي ، فقال بعدما توقف كتفاه عن الاهتزاز :

- وشنو تسوّي باليونان كاكا نبيل؟



- والله كاكا ، أنا ملّيت من حياتي هنا ببغداد ، وأريد أهاجر لليونان ، يگولون هناك هواي أكو بارات وشغل .

- ملعون ، هواي بارات ، لو هواي حلوات؟

- مو مهم كاكا ، أهم شي ماكو سكارى يزوّعون بالحمّامات .

- خلاص ، روح هسه وبعدين نشوف .

خرج نبيل فرحاً بعدما حصل على وعد شفاهي من كاكا حمه ، الذي سبق وأن ساعد أحد النُدُل الفقراء على الهجرة إلى اليونان .

عاد يتراقص طرباً على غير عادته . دلف إلى باب العمارة وتقافز على الدرج بنشاط غير معهود . وصل إلى سطح العمارة مستغرقاً وقتاً أقصر مما يستغرقه كل ليلة وهو يعود متثاقلاً إلى المسكن . ولج الغرفة ، ولم تشعر به نسمة ، فقد كانت تفترش السرير بكلتا يديها وتغط في نوم عميق كالعادة . نظر إليها نبيل وهو يقول في سرّه : «ما بقى شي يا دبّابة . . كلّها كم يوم وأخلص منّج» .

أبدل ثيابه وافترش الأرض ونام قرب السرير . كان شخير زوجته عالياً جداً ، وكانت الغرفة حارّة ، زادتها سخونة أنفاس نسمة التي كانت تخرج بشكل تراتبيّ ينتهي بصفير يشبه صفير القطار . وكانت المروحة تدور في السقف لتعيد زفير نسمة الحار على وجه زوجها المسكين . نهض نبيل من فراشه .



فتح النافذة المطلّة على سطح العمارة القذر ، ثم عاد ووضع شرشفاً خفيفاً على وجهه كخط صدّ لهجمات الناموس المتوقّعة بعد فتح النافذة .

لم يخطئ نبيل حين قرّر أن يوكل مهمة العبور إلى اليونان لكاكه حمه ، فالأخير صاحب خبرة طويلة في التهريب ، وله أصدقاء كثر ما زالوا يمارسون هذه المهنة .

- نبيل . . نبيل ، نادى عليه كاكه حمه وهو يحمل بيده دفتراً صغيراً بغلاف جلديّ أخضر .

- بلي كاكه .

- حضّر نفسك ، كل شي خلص .

- شنو يعني؟ راح أطلع؟ قال نبيل مندهشاً .

- إششششش ، لا يسمعوك الزباين . . إي ، راح تطلع وهذا جوازك صار جاهز ، يلّله فوت غيّر ملابسك وتعال ، راح يجي عليك جمال ياخذك بالسيّارة .

- هسّه؟!

- إي ، هسّه . . تحرّكْ .

أبدل نبيل ثيابه في غرفة العمّال واقترض حذاء من أحدهم بعدما رمى حذاءه الممزّق . كان كاكه حمه ينتظره على باب البار مع جمال المهرّب . سلّمه جواز السفر المزوّر ودسّ في جيبه مبلغاً من المال كمصروف طريق ، ثم أهدى إليه معطفه الطويل وأوصى عليه كاكه جمال .



- شگد طيّب كاكه حمه! قال نبيل وهو يصعد السيّارة التي ستقلّه إلى حدود تركيا .

- إي والله كاكه حمه مسل العسل ، ردّ جمال بلهجة عربيّة مكسّرة ، فضحكا .

وبعد ثلاثة أيّام من السير في المركبة ، تخلّلتها توقّفات للتخفّي عن شرطة الحدود والجندرمة التركيّة ، وصلا مدينة ديار بكر في الجنوب التركي . ناما عند عجوز قريبة لكاكا جمال ، ثم أكملا طريقهما بعدما أبدلا السيّارة بأخرى لا تقلّ سوءً عنها . ولكن ما شأن نبيل بالسيّارة وماذا يريد منها سوى أن توصله إلى العاصمة إسطنبول ، وقد فعلت؟! فبعد ليالٍ خمس مضنية ، كان نبيل برفقة كاكه جمال يقفان على أبواب مطار أتاتورك الدولي . كانا قد وصلا المدينة صباحاً ، زارا مكتباً للخطوط الجويّة ، قطع نبيل تذكرة ذهاب وإياب إلى اليونان كما أوصاه كاكه جمال بذلك ، ثم اشترى حقيبة سفر سيضعها على كتفه ـ ولو فارغة ـ كي يبدو مسافراً .

بعد ساعات كان نبيل على باب المطار يودّع رفيقه بالأحضان والقُبَل . كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها مطاراً ، لذلك ورغم وصايا جمال بالتماسك وعدم الارتباك ، كان نبيل يتصرّف كطفل تائه في الزحام .

- العفو ، ممكن سؤال؟ اعترض نبيل طريق أحد المسافرين ظنّاً منه بأنّه عراقي .



- . . . . ، لم يجبه الرجل .

وبعد ساعة قضاها في التيه داخل صالات المطار ودهاليزه ، وقع أخيراً على من سيعينه في محنته . لقد وضعت إحداهن يدها على كتفه وسألته إن كان بحاجة إلى مساعدة . كانت سيّدة عراقيّة في طريقها إلى أمستردام ، وقد رأت مسافراً بسحنة عراقيّة قليل الحيلة ، فقرّرت أن ترشده .

هل قلت لكم بأنّه كان يمشي ويتلفّت كطفل أفلت يد أمه في زحمة السوق؟

في الواقع ، كانت تلك المرأة بمنزلة المنقذ ، فلولاها لما ركب نبيل الطائرة المتجهة نحو أثينا . لقد تناولت منه التذكرة . قرأت رقم البوّابة المفضية إلى الطائرة . وأوصلته عند الباب وقالت : «اجلس هنا وانتظر . . هذا رقم رحلتك على اللوحة أمامك . . رافقتك السلامة» .

«خلاص يا نبيل . . خلاص» قال في سرّه وهو يحلم بحياةٍ جديدة لا يبعده عنها أكثر من ساعة طيران واحدة . حدّث نفسه وهو يغمض عينيه بأنّ عذاباته مع نسمة قد انتهت ، وبأنّه لن يعود إلى تلك الحجرة القذرة فوق السطوح ، وبأنّه لن يضطرّ بعد اليوم لغسل قيء السكارى في البارات ، فقد سمع ـ لا أدري من أين ـ بأنّ شعوب ما خلف المتوسّط لا يتقيّؤون على الأرض عندما يسكرون ، ولا يتبوّلون فوق الكراسي كما كان يفعل زبائن كاكه حمه ، وبأنّه سوف لن



يتعرّض إلى الشتائم فيما لو تأخّر في جلب المزّة، أو تبديل الشراشف التي يندلق عليها العَرَق.

كان قد حدّث نفسه بكلّ هذا دون أن يجرؤ على فتح عينيه. ليس لأنّه تعوّد على التفكير مُغمِضاً، بل لأنّ منظر الأرض من الأعلى كان يصيبه بالرعب، ولا يريد أن تسقط عيناه على النافذة. جرّب أن يفتحهما وينظر، فارتعب وأغمضهما من جديد.

بيني وبينكم، كان صاحبنا يرتجف خوفاً، واضعاً يده على قلبه، متمتماً بكلائش وتعاويذ تعلّمها في دار الأيتام. فقد كان كلّما تشاجر في الدار وحضرت المعلّمة لتعنيفه وضربه، تمتم ببعض سورة الفلق التي عجز عن حفظها كاملة، ونجا من العقاب.

بعض «الفلق» كانت تنجيه من الشرّ وتؤمنه من الخوف في دار الأيتام، لكنّها هذه المرة لم تصنع معه ما كانت تصنعه هناك. فهو معلّق بين السماء والأض، ومنظر الماء من نافذة الطائرة كان مرعباً جداً، لم تنفع معه تعاويذ الطفولة. كان نبيل يشعر بأنّ الطائرة ستقع وأنّ سمك القرش مدعو لوليمة غداء دسمة. ورغم استقرار الطائرة ودعوة الكابتن إلى فكّ الأحزمة والتمتّع بالرحلة، إلاّ أنّ قلب نبيل لم يستقر بعد. ظلّ خائفاً طوال الرحلة، لم يأكل ولم يشرب رغم كرم المضيّفة الجميلة التي تدور على خدمته.



«أكو شي . . مو خالية . . أكو شي» قال نبيل لنفسه بعدما غلبه الظنّ بأنّ التعاويذ لم تنفع هذه المرة ، وقد صدق ظنّه ، فقد بدأ جسد الطائرة بالارتجاج ، وأعلن الطيّار عبر مكبّرات الصوت بأنّ على الركّاب الهدوء وشدّ الأحزمة .

كان الكلّ يعتقد بأنّها مطبّات هوائيّة ستجتازها الطائرة وتمضي ، إلاّ نبيل . لقد أبلغه حدسه ، وحدس نبيل لا يخطىء عادةً ، بأنّ أمراً جللاً سيقع ، وأنّه بدأ يرى أسنان أسماك القرش تلتمع من تحت الماء بانتظار الفرائس التي ستسقط من السماء . زاد الارتجاج وتصاعد صوت الركّاب تساؤلاً عمّا يجري . بدأت الطائرة تميل إلى اليمين وتصدر صوت قرقعة مستمراً من جهة الجناح . تصارخت النسوة وعلا صوت بكاء الأطفال ، بينما انشغل الرجال بالإمساك بخراطيم التنفّس التي تساقطت عليهم من سقف الطائرة . انشغلت المضيّفة وزميلاها بتهدئة الأطفال . لكن بلا جدوى ، فالطائرة بدأت تترنّح في الهواء وتهبط . حاول الطيّار ومساعده السيطرة عليها وإيصالها إلى برّ الأمان لكنّ مطار أثينا ما زال بعيداً ، والطائرة في منتصف الطريق فوق بحر إيجه . نادى على الركّاب وطلب منهم بصوت مرتجف أن يلبسوا النجّادات الموجودة تحت المقاعد ، وأن يلزموا أماكنهم ويربطوا الأحزمة . قال بأنّ عطباً أصاب المحرّك الأيمن للطائرة ولا مناص من هبوط اضطراري في البحر . ثم طلب من الجميع أن يضعوا رؤوسهم بين ركبهم وينشغلوا بالصلاة طمعاً في السلامة .



صُعق نبيل بما رأى ، فهو وإن لم يفهم ما قاله كابتن الطائرة ، إلاّ أنّه علم من تصرّف الركّاب والمضيّفين بأنّ الطائرة ستهبط في البحر هبوطاً اضطرارياً قد يكلّفه حياته . ارتدى النجّادة ووضع رأسه بين فخذيه كما فعل الآخرون . كان قلبه يخفق بشدّة والعرق يتصبّب من جبينه بينما الطائرة تهوي من السماء وسط عويل النساء وصراخ الأطفال . هوت الطائرة بشكل عمودي حتى بدا بأنّ الطيّار قد أفلت المقود وفقد السيطرة عليها تماماً . سمع نبيل صراخاً يأتي من جهة قمرة القيادة ، والطيّارة تقترب من البحر بسرعة فائقة . نظر من النافذة فرأى البحر أقرب ممّا توقّع ، أغمض عينيه بقوة وتهيّأ للارتطام بالبحر وصاح : «يارب . . يارب . . يارب . . يارب . .» فارتطمت الطائرة ارتطاماً هائلاً تصاعدت معه المياه عشرات الأمتار . حلّ السكون في المكان وهدأ الجميع . شعر نبيل بأنّ جبلاً يضغط أضلاعه ولا يستطيع الحراك . فتح عينيه ، فوجد نسمة قد هبطت من السرير على صدره ولا زالت نائمة . أعاد الشرشف على وجهه وسلّم نفسه للنوم من جديد .



رقصة نوفا

يوم استعر جحيم الحرب ودارت ماكنة الموت على ضفاف الخليج ، فرّ صبيح من تلك البلاد . أغمض عينيه وصمّ أذنيه ثم تمتم بكليشة حفظها عن جدته نوفة وطار . لم يدر في خلده وهو يجتاز الحدود بأنّه سيلتفت يوماً نحو تلك الأرض المحروقة ، لكن ليلة واحدة قضاها في مركز استقبال اللاجئين في مدينة مالمو السويديّة جعلته يوقن بأن تميمة جدته لا نفع لها ولا دفع .

لم ينم صبيح في تلك الليلة حتى الصباح . ظلّ واقفاً في البرد عند الباب بانتظار ماريانا ، مديرة المركز . سألته حين حضرت عن مراده ، فأجابها بأنه يريد العودة من حيث جاء . تبسّمت ماريانا بعطفٍ ثم أجلسته وصارت تمسح على رأسه كما يفعلون مع اليتامى هناك في أرض جدته نوفة .

ماريانا الجميلة وبحركة أصابعها الرقيقة جعلت من قلب صبيح حلبةً لشعورين متصارعين ؛ الأول كان شعوراً باليتم تبعته رغبة ملحّة في البكاء ، أمّا الآخر فكان شعوراً مختلفاً تماماً . كان يشعر برغبة جنسيّة جامحة وصوت يهمس في أذنيه أن قبّل أصابعها يا غبي .



في آخر المطاف أمسك بيدها ، عصرها بقوة وقال بصوت اختلط بالنشيج : «اسمعي يا ماريانا ، أمامك خياران لا ثالث لهما ؛ إما أن تعيديني من حيث أتيت أو تنامي معي هنا في هذا المكتب» .

ضحكت ماريانا بصوت عالٍ وقالت بلغة ركيكة تعلّمتها من بعض اللاجئين العرب في المركز : «لم أرَ مِسْلَ هازا في حياتي يا سَبيح» ، فردّ «سَبيح» وهو يمسح دموعاً تتقافز من عينيه : «سأريك العجب لو وافقت أيتها الشهيّة» .

في المساء كان صبيح جالساً أمام الموقد على أريكة وثيرة في بيت ماريانا . منظر النار في الموقد جعله يشعر بالحميميّة تجاه المكان ، متناسياً كآبة الثلج التي حلّت في روحه . أمّا هي فقد كانت تقف أمام الموقد تهزّ ردفيها مترنمةً بلحن غجري .

لم تكن ماريانا غجريّة لكنّها تعلّمت رقص الغجر عندما عاشرت غجرياً من قبل ، كما تعلّمت رقص التانجو عندما عاشرت مهاجراً قدم من مدينة مندوزا الأرجنتينية ، والسامبا عندما نامت مع فرناندو البرازيلي . . والقائمة تطول .

في الواقع ، لم تعشق ماريانا مهاجراً قط إلاّ ليعلّمها الرقص . مجنونة رقص هي! هذا ما صرّحت به أمام صبيح وهي تكرع ما بقي من زجاجة النبيذ الأبيض بيدها ، لكنّ المشكلة التي ستواجه صبيح وقد تحرمه النوم مع ماريانا ، هو أنّه لا يجيد الرقص ، بل لم يمارسه يوماً في حياته . والأدهى من



ذلك أنّه لا يعرف الرقصة الوطنيّة لأبناء شعبه ، فكل واحد هناك يرقص على هواه . ما العمل إذن ، وقد بدأت ماريانا تحاصره وهي تجرّه إلى حلبة الرقص :

- ما اسم رقصتكم يا صبيح؟

- . . . .

- ما بك؟ قل لي ما هي رقصتكم؟

- . . . .

- هيّا يا صغيري ، أجبني أرجوك .

ليس لديه جواب ، صدّقوا ذلك . ولكنّه وبعد طول أناة قال :

- رقصة نوفة .

- وكيف تكون رقصة نوفا هذي؟ هيّا علّمني ، قالت بإلحاح فردّ صبيح :

- رقصة نوفا عذاب في عذاب يا ماريانا .

- كيف؟

- شدّي وزارك أولاً ، انثري شعرك ، دعيه إلى الريح . . نعم هكذا ، والآن شقّي زيقك .

قالها صبيح وهو يشقّ ثوب ماريانا من جهة الصدر ويُردف : «لقد أصبحتِ الآن جاهزة لرقصة نوفا يا صغيرتي ، هيّا خالفي يديك واضربي بهما على صدرك وردّدي معي : ضاع صول چعابنا وخرّب لعبنا . . ضاع صول چعابنا وخرّب لعبنا» .



ردّدت الكلام بعده بصعوبة بالغة وظلّت تلطم على صدرها وتهتف بنشيد صبيح وهي منتشية حتى تعبت ونامت .

في الصباح لبس صبيح ثيابه وهمّ بالخروج . نادت عليه ماريانا : «صبيح . . صبيح . . منو ضيّع صول چعابكم يا صبيح؟» .

أجابها صبيح بعد آهٍ طويلة فلتت من بين أضلاعه : «نوفة . . نوفة من أضاعته يا مارينا . . انطمري» .



هذيان

تردّد طويلاً قبل أن يوقّع على الورقة التي وضعت على الطاولة أمامه . كان عليه أن يعطي الضوء الأخضر للكادر الطبي من أجل تهيئته لصالة العمليّات . لم يكن يوسف خائفاً من عملية القلب المفتوح قدر خوفه من التخدير . قلت من التخدير؟ لا شك أنّي أقصد : من الهذيان تحت التخدير . فقد دار في رأسه وهو يهمّ بالتوقيع شريطُ الذكريات . تذكّر يوم رافق زوجته إلى صالة الولادة . كان مستشفى حكومياً يعوزه الكثير من النظافة آنذاك . اضطر أن ينقلها إليه وقت جاءها الطلق كالقدر المستعجل .

في الواقع لم تكن تلك الأيّام أيّام ولادتها ، بحسب الداية أم فتوحي ، فقد فحصتها قبل يومين وقالت بأنّ الوقت ما زال مبكراً ، لكنّ أمراً ما غيّر خطة الجنين وجعله يفكّ القيد ويهمّ بالنزول .

كانا متسمّرين أمام شاشة التلفاز ، يشاهدان إحدى حلقات مسلسل الذئب وعيون المدينة . أظنّها كانت العاشرة . وفجأة سكت قادر بيگ ، بطل المسلسل ، وتجمّدت صورته ، ثم



تبدّلت الشاشة بصورة مذيع متجهّم يسترعي انتباه السادة المشاهدين . بعدها ظهرت صورة لجنود يرفعون علامة النصر فوق دبّابة تسير بسرعة فائقة . تلتها أغنية تعبويّة من تلك الأغاني التي حفظها الناس لكثرة تكرارها . ثم عاد المذيع ليسترعي الانتباه من جديد ، ودارت أغنية ثانية وثالثة ، حتى وصلا إلى لحظة الحقيقة . توقف الهزّ وسكتت الموسيقى وطلّ المذيع بملامحه الجادّة ليلقي بياناً صادراً عن القيادة العامة للقوات المسلحة . كان يستعرض بزهوٍ مصطنَع خسائر العدو في هجوم شنّه الجيش الإيراني على قاطع مندلي الحدودي في ديالى . كان يرصّ الجمل رصّاً وهو يزفّ بشائر النصر بعد التصدّي للهجوم المعادي . ثم بدأ يعدّد أسماء الألوية التي شاركت في المعركة . وعندما وصل إلى اللواء العاشر قوات خاصة ، صرخت الزوجة معلنة عن هجوم آخر يشنه الجنين في أحشائها . لم ينذر بمقدمات البتة . هكذا وبلا سابق إنذار قرّر أن ينزل . ربما لأنّه سمع بأنّ خاله الملازم أول قوات خاصة في خطر ، فمن قال بأنّ الأجنّة لا يسمعون؟!

هرع يوسف إلى الشارع وأوقف سيّارة أجرة تقلّهما إلى مستشفى الولادة العام . أركب زوجته وهي تصرخ من ألم الطلق . كانت مستشفى الولادة مكتظّة يومذاك ، فالعراقيّات ولّادات ، سيما في زمن الحروب . كان معدّل الولادات مرتفعاً في الثمانينيّات ، يفوق معدل الوفيّات وكأنّهن يعوّضن الأرض



بما سقط من أبنائها على السواتر .

أُدخلت الزوجة على الفور إلى صالة الولادة بينما بقي يوسف على الباب . حاولت الطبيبة الخفر ومعها مجموعة من المساعدات على توليدها بطريقة طبيعيّة ، لكن بلا جدوى . لقد تعسّر خروج الجنين وبدأ الطلق يُنهك الأم ، لذلك قرّرن إدخالها إلى صالة العمليّات والاتصال بالطبيبة المختصة لإجراء عملية توليد قيصريّة . كان يوسف قلقاً ينتظر أمام الصالة ، وهو يشاهد النسوة الخارجات منها على النقّالات بعدما أُفرغت أرحامهن بالمشرط . كانت الممرضات يُخرجنهن الواحدة تلو الأخرى قبل أن يفقن من التخدير . كنّ يهذين تحت تأثير المخدّر بما لا يسرّهن لو سمعنه بعد حين .

خرجت إحداهن وهي تشتم حماتها ، نعيمة ، بأعلى صوتها . لقد عرف الجميع اسم حماتها التي تقف عند رأسها وتحاول إسكاتها . لقد فضحتها ومسحت بسمعتها بلاط المستشفى . وخرجت أخرى تصرخ وكأنّ عقرباً قد لدغها ، ومع أنّها ما زالت تحت تأثير المخدّر إلاّ أنّ ممّرضتين اثنتين كانتا قد تعاضدتا للإمساك بها وتهدئتها . كانت تبصق وتنعت نفسها بكلمات بذيئة أحرجت زوجها الذي كان يحاول إفاقتها بالصفع على خدّيها .

ابتعد يوسف عن باب الصالة ليقف في الطرف الآخر للدهليز المؤدّي إلى غرف العناية المركّزة . كان لا يريد لأذنيه أن



تسمع ما تهذي به النسوة المسكينات . كان وقتاً ثقيلاً سمع فيه أسراراً ما كان لها أن تُفشى لولا التخدير . وبعد ساعتين من الانتظار والتململ خرجت إحدى الممرضات تدفع بزوجته على نقّالة تغطّيها بقع الدم . هرول يوسف نحوها محاولاً الاطمئنان عليها أولاً وغلق فمها فيما لو أدلت بتصريحات ثانياً . كانت تهذي لكنّ هذيانها لم يكن مفهوماً . كان عبارة عن تمتمة وتأوّهات بلا معنى . وفجأة صرخت بأعلى صوتها : «يوسسسسف . . آخ منّك يوسسسسف» فوضع يوسف يده على فمها خوفاً مما يلي هذه الـ «آخ منّك» ، لكنّ المساعدة جاءت وأخبرته بحالة ابنه السيئة الذي ينام في غرف الخدّج .

قالت له بأنّ عليه أن يحضر في مكتب الطبيبة المختصة كي تشرح له الوضع . أفلت يوسف يده وتبع الممرضة تاركاً صدى أسراره ترنّ على جدران المستشفى .

وقّع الورقة مسلّماً قلبه بيد سيسيليا ، الطبيبة التي ستجري له عملية القلب المفتوح . كان قلبه قد تعب مؤخّراً وكسته طبقة من دخان أسود . فيوسف يعيش في السويد ، لكنّ قلبه لا يزال هناك ، في محلّة البتاويين وسط بغداد . غادرها مرغماً بعدما فقد زوجته وابنه الوحيد في تفجير سيّارة مفخخة في شارع السعدون . لم يبق له في بغداد سوى مظروف صغير فيه رسالة تهديد بالقتل ورصاصة ، كان قد وجده ذات صباح عند باب الدار . باع الدار وما فيها وفرّ بجلده . لكنّ قلبه لم يطاوعه وبقي



هناك ، على عتبة الباب في البتاويين .

كان يوسف يستمع لأخبار العراق أكثر مما يأكل . لم تلهه السويد وما فيها عن بغداد وما يجري عليها . كان يعمل في توزيع الصحف ، لكنّه لم يقرأ يوماً واحدةً منها . كان يضع الجريدة في صندوق البريد ويتبعها بقوله : «فارغة» .

ينعت يوسف الصحف السويديّة بالفارغة رغم غزارة الأخبار وكثرة الصور فيها ، لأنّه يعتقد بأنّها أخبار باردة تشبه طقس ستوكهولم ، المدينة العظيمة التي لم تملأ قلبه يوماً . ليس لأنّها غير قادرة على استمالة القلوب ، بل لأنّ قلبه ظلّ هناك ، على عتبة باب الدار وسط بغداد .

تزاحمت صور الأشلاء في ذاكرته ، وصار يبدلها كل صباح بصور أخرى أكثر وحشيّة . شريط الذكريات الأول تبدّل هو الآخر وحلّت محلّه ڤيديوهات الذبح والحرق والرمي من البنايات العالية . لم تبق زاوية واحدة في تلافيف دماغه إلاّ وحشر فيها مشهداً مأساويّاً يتعرّض إليه أبناء جلدته هناك . ذكرياته عن بغداد الحلوة وليالي أبي نؤاس وسينما النصر والزوراء والأورزدي وباتا وكعك السيّد وشربت الحاج زبالة ومقهى الشاهبندر وشارع النهر . . كلها هُكِّرت من قبل قراصنة الموت المبرمج ، فتعفّن قلبه وكسته طبقة دخان أسود جعلته لا يعمل بانتظام .

مدّت سيسيليا يدها برفق إلى صدره ، فحصت قلبه



وقالت : «لا تقلق ، سنجعله يشتغل كما كان» . وبعد سبع ساعات قضاها يوسف تحت التخدير ، خرج وهو يسترق السمع لضربات قلبه ، ويتحسّس صدره كي يتأكّد من بقائه على قيد الحياة . تذكّر بأنّه فاق للتوّ من التخدير وعليه أن يعرف بماذا هذى قبل الإفاقة . كان قلقاً من أن يكون قد أفشى سرّاً من أسراره التي يحتفظ بها كصندوق مقفل . كان خائفاً من الهذيان ببذاءات اعتاد التلفّظ بها كلما شاهد اجتماعاً لأحزاب السلطة هناك ، أو أن يكون قد أطلق من فمه عفطة طويلة كتلك التي يطلقها كلما سمع تصريحاً لسياسيّ فاسد .

ضغط على زرّ الطوارئ المتدلّي قرب الوسادة ، فحضرت على الفور ممرّضة كانت تجلس في غرفة جانبيّة تراقب وضع القلب عبر جهاز الحاسوب أمامها . أومأ بيده إلى فمه ، ففهمت بأنّه عطشان وجلبت له قدح ماء . أعانته على النهوض وسقته القدح . وعندما انتهى سألها بصوت منخفض عن الكلام الذي هذى به تحت التخدير ، فقالت : «اطمئن ، لم نفهم منه شيئاً» . حينها تذكّر يوسف بأنّ عقله ، هو الآخر قد بقي هناك ، على تلك العتبة في بغداد ، ومن يفكّر ببغداد ، يهذي بلغة أهلها .



شريف البشتي

لم يكن مَرضيّاً عنه لدى أبيه . كان يجلس في الديوان والعلكة تدور في فمه وعندما ينهره أبوه ، يخرج العلكة ويلصقها بعباءة أحد الضيوف ويغادر .

شريف ابن الحاج سعدون البشتي ، والذي يلقّبه أهل القرية بـ«اشريّف الطويل» ، كان بارعاً في صناعة المقالب بجلاّس أبيه الحاج سعدون ، كبير عشيرة آل بشتي وسيّدها .

ذات صباح وكان الديوان مكتظاً بالضيوف ، وضع شريف مسماراً صدئاً في إبريق القهوة ، وبعدما جهزت سقاها ضيوف أبيه . تسمّم يومها الحاج نعمة الذي كان نهماً في شرب فناجين القهوة ، فحرّم تناولها من يد اشريّف المشاكس .

في ليالي الجمع جرت العادة أن يعتلي المنبر خطيب القرية ، الملاّ عودة البشتي . كان صوته يفتّ الصخر بحسب وصف أهل القرية كنايةً عن نبرة الحزن فيه . وعندما شرع الملاّ بقراءة المصيبة طأطأ الحاضرون رؤوسهم شروعاً بالبكاء ، أو التباكي كما أوصاهم ملاّ عودة بذلك ، ثم لحظات وضجّ المجلس بالنحيب .

كان الكلّ يبكي إلاّ شريف ، دسّ رأسه بين ركبتيه



الطويلتين وصار جسده يهتزّ من الضحك . كان يضحك لأنّه استرق النظر ليراقب مشاعر الملاّ وهو يقرأ المصيبة ، فسقطت عيناه على سرواله المفتوق . كانت خصيتا ملاّ عودة مندلقتين من شقّ السروال مّما جعل شريفاً يضحك حد البكاء .

عندما كبر شريف فرّ من الخدمة العسكريّة واختبأ في بيت خالته ببغداد . ومن هناك هرب إلى السليمانيّة ثم تركيا وأوربا . كانت رحلة تهريب طويلة وقاسية ، ذاق فيها الأمرّين . أيّاماً وليالي قضاها شريف يمشي في الجبال والثلوج حتى وصل برّ الأمان مع ما تبقّى من القافلة التي مات نصفها في الثلج ، بينما تشتّت الباقون وضاعوا في الغابات الكثيفة .

وصل شريف وبضعة مهاجرين إلى فنلندا ، فأمسكت بهم الشرطة وأودعتهم جملوناً كبيراً يحوي قرابة المائة مهاجر غير شرعي . وبعد تسعة أشهر قضاها في كامب اللاجئين حصل على إقامة لأسباب إنسانيّة ، تعطيه حق العيش والعمل في تلك البلاد الباردة .

في فنلندا اصطدم بحاجز اللغة والمجتمع والعادات والقوانين الصارمة وكل شيء . غير أنّ أكبر ما كان يعاني منه شريف في الغربة أنّه لا يستطيع صنع المقالب هناك ، فلا أحد يفهم عليه لغته ، ولا حفنة الكلمات التي تعلّمها في مدرسة اللغة تسعفه في صنع القفشات باللغة الفنلنديّة .

رغم ذاك ، انخرط شريف البشتي في العمل وصار موزّعاً



للإعلانات . يعمل في الثلث الأخير من الليل ، بينما ينام في النهار . انقلبت حياته رأساً على عقب وصار ضيفاً دائماً على البارات . تعرّف أخيراً إلى شاني ، شابّة جميلة من أصل روسي . كان يناديها بـ كَظَم على اسم أمّه . عاش معها في بيتها وعلّمها بعض الجمل والمفردات العربيّة كي تضحك عندما يحكي لها نكتة من تأليفه ، ولكن بلا جدوى . لذلك مرض شريف وتبدّل حاله بعدما يئس من إمكانيّة ممارسة الصنعة الوحيدة التي يجيدها ، الضحك .

صار كئيباً . اجتاحت روحَه موجة حنين لقرية آل بشتي التي هجرها بإرادته . ضاعف حزنه غياب شاني في رحلة عمل إلى الصين . وعندما عادت وجدته حبيس غرفة الضيوف بعدما أبدل أثاثها . لقد حوّلها شريف إلى ما يشبه ديوان أبيه الحاج سعدون البشتي . أخرج طقم الكنبات وأبدله بجلسة عربية على الأرض . رمى الستائر البلاستيكية ووضع محلّها ستائر من القماش الأسود . علّق على الحائط صوراً ترمز لشخصيّات دينيّة . نصب في صدر الديوان كرسيّاً كبيراً غلّفه بقماشة سوداء . اشترى ثمرتَي باذنجان . شدّهما بخيط وعلّقهما على الكرسي ، ثم جلس يبكي تارة ويضحك أخرى .

فزعت شاني «كظم» لما رأت عيناها . كان كل شيء جنونيّاً ، لا علاقة له بالعقل . بيتها تبدّل وعشيقها تبدّل وكل ما حولها تبدّل ، فجلست إلى جواره لتفهم منه ما يدور . سألته



عن السواد الذي تتشح به غرفة ضيوفها ، فأجابها بأنّ شهر محرم قد حلّ وعليه أن يمارس طقوسه التي اعتادها في قرية آل بشتي . سألته عن معنى الجلوس على الأرض ، فقال :

- هذه عادة أهل القرية يا كظم .
- وما هذه الرائحة يا شريف؟
- ريحة البخور يَـ كَظَم .
- و ما هذا الوعاء الغريب يا شريف؟
- دلّة گهوة يَـ كَظَم .

أخيراً تيقّنت شاني بأنّ صديقها يمرّ بأزمة (هوم سيك) حادّة ، فجلست تواسيه وتمسح على كتفه ، ولكنّها في الأثناء التفتت إلى ثمرتي الباذنجان المتدلّيتين من المنبر فسألته :

- حقاً ، ما هاتان الباذنجانتان على المنبر يا شريف؟ فردّ :
- خصاوي ملاّ عودة يَـ كَظَم .



دراهم عمّتي سمسميّة

يتمتم سمير كلما وضع رأسه على صدر صوفيا : «الله وحده يعلم مقدار وجعي» وحين تطالبه برفع صوته كي تسمع ما يقول ، يجيبها : «لا شيء يا حبيبتي . . لا شيء» .

يومَ أمسكت السلطة بأبيه ، فرّ سمير ليختبئ في بيت جدّه . كان خائفاً يترقّب طَرق الباب ، فيهرب إلى السطح كلما سمع صوتاً ليختبئ في قنّ الدجاج . بعد شهرين فرّ من الدار والتجأ إلى بيت جدّه ، الحاج ناصر .

خوف سمير وهو يدسّ رأسه في حجر صوفيا هو ذاته الخوف الذي كان يدفعه لدسّه في حجر عمّته سمسميّة .

كانت سمسميّة عانساً قد فاتها قطار الزواج كما تقول . تبنّت سمير وقاسمته حجرة نومها . كانت كل ليلة تحتضنه وتحكي له حكاية قديمة وهي تفرك فروة رأسه حتى ينام .

لم تكمل العمّة سمسميّة تعليمها لكنها رضعت الحكمة من ثدي الحياة على حدّ زعمها . قالت ذات مرة لسمير بعدما أبدى إعجابه بعقلها : «عمتك راضعة الحكمة من صدر الدنيا يا وليدي» .

بيني وبينكم ، لم يكن سمير معجباً بحكمة عمّته قدر إعجابه بدراهمها . كانت تخبّئ تحت السرير صندوقاً حديديّاً



مليئاً بالدراهم وتقفل عليه بمفتاح يتدلّى من خيط حول رقبتها . كانت كل ليلة تجلس مع سمير وتملي عليه حكمتها ثم تعطيه درهماً كاملاً إزاء الاستماع للحكمة الواحدة . كان عليه فقط أن يصدّق ما تقول ويؤمن به حتى لو كان كلاماً فارغاً ، ولطالما كان كذلك . وكلما سارع سمير لهزّ رأسه موافقاً على ما تقول ، كان أقرب للحصول على الدرهم الآخر وهكذا .

- حاربتني الحياة يا صغيري ، قالت سمسميّة .
- صدقتِ يا عمّة ، ردّ سمير .
- لكنّي انتصرت عليها .
- صدقتِ يا عمّة .
- العقل زينة والجمال خزينة .
- صدقتِ يا عمّة .
- وعندي كلاهما .
- صدقتِ .
- هاك درهم .

كان سمير يدسّ الدرهم في جيبه ويتظاهر بالطاعة والتسليم ، وما إن تشرق الشمس حتى يذهب إلى السوق ليشتري كعكتين يفرش بينهما حلقومة واحدة ، ويبدأ بالقضم على حب الحكمة . في الليل يعود لحضن سمسميّة لتمسّد على رأسه وتزيده من حكمتها .

كان سمير يعلم بأنّ حكاياتها تافهة لكنها توفّر له الكعك نهاراً والأمان ليلاً ، فماذا يريد أكثر من ذلك؟!



- حكيمة كانت عمّتي يا صوفيا ، قال سمير وهو يضع رأسه على صدرها .

- جداً حكيمة ، ردّت صوفيا .

صوفيا فتاة أوكرانيّة تعمل نادلة في إحدى المقاهي وسط كوبنهاغن . التقاها سمير ذات يوم في المقهى وهي تبيع النسكافيه للزبائن ، فتحوّل بقدرة قادر إلى مدمن نسكافيه . كل يوم يجلس على الطاولة المقابلة ويكرع النسكافيه حتى تخرج من أذنيه .

سنة كاملة بفصولها الأربعة يعيد سمير الطقس ذاته كل يوم ؛ يجلس من الصباح حتى المساء يشرب النسكافيه ويحدّق بوجه صوفيا . كان يحلم بابتسامة تسعد قلبه ، لكنها لم تفعل إلا بعد مضي عام كامل . كانت قد تيقّنت وهو يقترب منها ذات نهار ليدفع فاتورة النسكافيه التي طفحها بأنّه يحبّها . لقد قرأت العشق في عينيه ، فلامست يده عمداً وابتسمت . ومنذ تلك اللمسة وسمير يعيش مع صوفيا في شقّتها .

لكن سنوات الجمر التي عاشها سمير بعد فقد أبيه سرعان ما عاد شبحها ينهش قلبه . لم تنجده صوفيا ولا الغربة في نسيان ما حلّ به هناك ، فعاد كل ليلة يرتعش ويبكي ليدسّ رأسه في حضن حبيبته ويتمتم بوجعه .

سألته وهي تمسّد على رأسه غير مرة :

- ما الذي يبكيك يا سمير؟

- لا شيء يا حبيبتي لا شيء ، يردّ ويعود إلى البكاء .



وذات مساء عادت صوفيا من المقهى لتجده عارياً تماماً . كان ثملاً يحمل بيده بطل نبيذ شارف على النفاد ، وبيده الأخرى قرطاساً أبيض . عندما شاهدها تلج الشقة ، صعد على الأريكة وسط الصالة وبدأ يعوي .

- ماذا تفعل بحق السماء يا سمير؟ سألتْ بدهشة .

- استمعي ولا تقاطعي يا صوفيا . . عووووووو ، أجاب .

- إلامَ أستمع؟

- استمعي إلى حكمتي وستنالين درهماً لكل حكمة .

- . . . .

- الوطن كذبة . . عووووووو .

- . . . .

- الوطن يأكل أبناءه . . عووووووو .

- . . . .

- الدنيا دوّارة . . عووووووو .

ظلّ سمير يعوي حتى تعب ونام . وفي الصباح استيقظ ليجد نفسه مسجّىً على السجّادة ، سابحاً في بوله . اغتسل وأبدل ثيابه ثم همّ بالخروج ، وعند الباب وجد قصاصة صغيرة مكتوب عليها :

«لا حاجة لي بدراهمك يا سمير . . احمل حقيبتك وعُدْ من حيث أتيت ، فإن كان الوطن يأكل أبناءه ، فإنّ الغربة ستلحس عقولهم» .

صوفيا



عذاب بين السطلين

وِلد عذابُ ميّتاً ، ولولا نعيمة الدّاية لما كان جالساً في هذه اللحظة أمام سونيا . كانت صديقته الرسّامة سونيا سولبيرغ قد دعته لقضاء سهرة في بيتها ، وعندما حضر طلبت منه أن يكون موديلها القادم فلم يردها خائبة .

قبل ساعتين حضر عذاب إلى المرسم ، خلع ملابسه وصار عارياً تماماً ، ثم جلس على كرسي مرتفع مسلّماً نفسه طوعاً إلى فرشاة سونيا . أحضرت له فنجان قهوة وعلبة سجائر وطلبت منه ألاّ يتقيّد في جلوسه . كان عليه فقط أن يضبط بوصلة الوجه والكتفين باتجاها .

في الواقع لم يكترث عذاب كثيراً للنتيجة وما ستؤول إليه اللوحة ، لكن تلك الجلسة تتيح له أن يتمعّن بوجه سونيا الأبيض ، والذي يزداد إشراقاً كلما أمسكت بالفرشاة ورسمت ، لهذا التزم عذاب بتعاليم سونيا وأبقى وجهه وكتفيه منتصبين أمامها . لكن منظره عارياً ذكّره برواية أمّه عن لحظة ولادته قبل أربعين عاماً ، فبادر بسردها لسونيا .

- أتدرين يا سونيا بأنّي وِلدت ميتاً؟ قال وهو يطفئ سيجارته .

- كيف هذا يا عذاب؟! ردّت سونيا وهي تصوّب عينها



على أنفه الكبير وترسم .

- أخبرتني أمّي ذات يوم بأنّي خرجت إلى الدنيا جثّة هامدة ، فوضعتني نعيمة الدّاية في سطل لترميني في النهر .

- وهل فعلتْ؟

- بالطبع لا ، وإلاّ لما كنت جالساً أمامك الآن .

- إذن ، ما الذي حدث؟

مدّ عذاب يده على علبة السجائر التي تستريح فوق المنضدة بجانبه . أشعل سيجارةً أخرى . سحب نفساً طويلاً ونفثه في الهواء باتجاه السقف وعاد ليكمل لها الحكاية .

- عندما لسعتني برودة السطل ، أطلقتُ ضرطةً عظيمة .

- إي . . وماذا جرى بعد ذلك؟

- لا شيء ، أخرجتني نعيمة من السطل وهلهلتْ .

انشغال سونيا وتركيزها في اللوحة فوّت عليها نبرة الحزن في صوت عذاب وهو يقلّد هلهولة نعيمة الدّاية گولولولولوولش . لكنّها عندما فرغت من الجذع وشرعت برسم الجزء الأسفل من الجسد انتبهت إلى آثار حروق تغطّي فخذيه .

كان عذاب قد أُودع السجن قبل فراره من العراق . بقي قابعاً في قبوٍ رطب تحت الأرض لعامين كاملين بتهمة معاداة الحزب والثورة . تعرّض لأبشع أنواع التعذيب هناك : الفلقة ، الخيقانيّة ، التعليق ، الصعق بالسلك الكهربائي ، الحرق بالسجائر وكل ما لا يطرأ على بال إنسان سويّ .



- ما هذا الوشم يا عذاب؟ سألتْ سونيا بعدما وضعت الفرشاة ودنت .

- هذه آثار التعذيب يا سونيا .

- تعذيب؟!

- نعم يا عزيزتي ، كان النقيب ماجد ، ضابط التحقيق في دائرة الأمن يعلّقني ويتسلّى بإطفاء سجائره في جسدي ، كان لا يشبع حتى يسقطني مغشيّاً .

- ومن ثم؟

- ثم ماذا؟

- كيف كان يوقظك بعدما يُغشى عليك؟

- كان يأمر الحرّاس بالتبوّل في سطل ثم يرشّها عليّ فأنتبه صارخاً .

أطلقت سونيا العنان لدموعها واحتضنته باكية . مسحت على رأسه وقبّلت ما بين عينيه ثم عادت لتمسك فرشاتها وتوثّق لحظة حزن رهيبة ارتسمت على وجه رجلٍ عارٍ .

أنهت عملها وشرعت بوضع توقيعها على اللوحة ، لوحة الموديل «عذاب العراقي» الذي ولِد هناك ميتاً معذّباً ويجلس هنا عارياً حزيناً ، ثم أرّختها بفرشاةٍ ناعمة وسألت :

- ما رأيك يا عذاب أن تكتب حكايتك كي يقرأها الناس؟

- نعم سأفعل يا سونيا ، أجاب .

- وماذا ستسمّيها؟

- عذاب بين السطلين يا سونيا ، فضّيها كتلني البرد .



قصة زنّوبة الحمرة

ما لم تنتم لعصابة تحميك فإنّك ستكون عرضة للتنمّر ، هذا هو المنطق الَذي كان سائداً أيام طفولتي . المدرسة تتقاسمها ثلاث عصابات : عصابة رحيم زُعماك ، عصابة فاضل خيسة وعصابة محمد دگمة .

كان زعماك طويل القامة ، أسمر البشرة ، يحمل في جيبه سكيناً ولا يكترث لأحد . كان متأثراً بالسينما الهندية وقتذاك وتحديداً بأدوار البطل أميتاب ، فكان يحرص على حفظ حركاته ليطبقها علينا .

عصابة زعماك كانت هي الأقوى في المدرسة وفي الشارع أيضاً ، لأنها كانت تضم أشرس فتيان المنطقة من أمثال : عرفان أبو الططو ، حيدر كراتيه وصباح نومي . كانت تقابلها في القوة عصابة فاضل خيسة المدعومة من الأستاذ رحيم ، معاون المدير ، لصلة قرابة بينهما ، لذلك نادراً ما كان زعماك يعتدي على فاضل خيسة أو أحد أفراد عصابته ، أوقات الدوام الرسمي خوفاً من أستاذ رحيم ، مما حدا بالمعارك أن تقع خارج أسوار المدرسة .



كانت عصابة محمد دگمة هي الأضعف بين هذه العصابات الثلاث، فمحمد دگمة كان فتىً عاشقاً، يحب كتابة الشعر ولا علاقة له بشغل العصابات ذاك، ولكنّه لكثرة ما تعرّض للتنمّر والضرب، اضطرّ لتشكيل عصابة تحمل اسمه. لقد كانوا يطلبون منه نظم الأهازيج بمدحهم؛ فإن أبى ضربوه وبصقوا في وجهه. المسكين شبع إهانات وضرباً حتى جاء اليوم الذي انتفض فيه وجمع عدداً من زملائه وأنشأ عصابة أطلق عليها: عصابة دگمة.

كان دگمة ذكيّاً ومراوغاً، استخدم سياسة شبك اللحى للخلاص مما ينتظره وقت الخروج من المدرسة. فإذا تحرّش به أحدهم صار لكتابة أهزوجة نصر ودسّها في حقيبة زعماك وأخرى مثلها في جيب فاضل خيسة، لتصعد الغيرة في رأس كليهما ويتقاتلا فيما يسلم هو وأتباعه. غير أنّ أمراً آخر يدعو العصابتين ليتفقا على النيل من محمد دگمة وهو حبّه للحمراء زينب، أجمل فتيات المنطقة. كان يكتب فيها أبيات الدارمي ويبعثها مع أخيها الصغير، مجّودي الذي كان أحد أفراد عصابته، ثم إذا أراد رؤيتها مرّ من باب بيتها وأمر أحد أتباعه أن يصيح بصوت عال: «ولك سدّ الدگمممممة.. دگمة دگممممة»، فتسمعه زنوبة الحمرة وتخرج بحجة رشّ عتبة الدار بالماء.

كانت زنوبة جميلة جداً، يختلف لونها عن قريناتها



السمراوات . كانت بشرتها بيضاء مشوبة باللون الأحمر ، وكانت حين تبتسم ، يبتسم لها جميع أفراد العصابة المتمترسين خلف قائدهم العاشق ويبدأ المغامز والتأشير . كان الكل يدّعي بأنها ابتسمت له وأن غمزته هي التي وصلت!

قصة الحب الدائرة بين محمد دگمة وزنوبة الحمرة جعلت من زعماك وفاضل خيسة في جبهة واحدة للنيل من غريمهما دگمة ، فكان شارع بيت أبي زينب ساحة الوغى بالنسبة لهم . هناك تدور المعارك وهناك تستعرض البطولات .

مسكين محمد دگمة ، كان كل يوم يأخذ المقسوم من الضرب أمام أنظار حبيبته زنوبة الحمرة ، لذلك قرّر أن يحلّ العصابة ويترك المدرسة وينتقل للعيش في بيت جده لأمه . هناك سيعمل أجيراً في مقهى خاله الحاج ناصر . فدگمة إنسان بسيط ، شفاف لا طاقة له على مشاكل العصابات هذا . أما زنوبة فلم تخرج لرش الباب بخرطوم الماء ولم تصعد إلى السطح لسقي الزرعات بعدما ترك حبيبها المدينة ورحل .



فيصل السادس عشر

منذ أن وصل فيصل إلى هذه البلدة الباردة في شمال فنلندا وهو يشتكي من الخَرَس . في الواقع هو لا يشتكي من الخرس ، بل من الصمم ، صمم أهل البلدة المطبق . فلا أحد هنا ينصت إليه ، حتى هيلدا ، الأخصّائيّة النفسيّة المشرفة على حالته ، كانت لا تكترث لحكايته التي قصّها على مسامعها ألف مرة ومرة . كانت تومئ برأسها محاولةً إيهامه بأنها مصغية . لكن على مَن؟! «على فيصل يا هيلدا؟!» ، يقول فيصل في نفسه ثم يبدأ بالصراخ بصوت عالٍ ، فإن لم ينفع الصراخ ، ابتكر طريقة أخرى للتعبير عن احتجاجه على صممهم .

كان يشقّ ثوبه تارة ، ويعوي تارة أخرى . كان يزحف على أربع أو يمتطي السرير ويتصرّف كمن يركب حصاناً . كل ما يخطر في البال وما لايخطر ، كان يفعله فيصل من أجل أن يستمع الآخرون لحكايته .

كان نتناً يسير في ممرّات المصحّة عارياً يعبث بذكره ، لا يغتسل ، ولا ينظّف فمه بعد الأكل .

في الواقع لم يكن فيصل بهذا السوء قبل الخامس من



حزيران لسنة ٢٠٠٦ ، اليوم الذي فقد فيه زوجته رباب ، وابنتيهما الوحيدتين ، ليلى وسلمى .

كانوا عائدين من زيارة الأضرحة في مدينة الكاظمية ، وكانت رباب تشكو مغصاً كلوياً حاداً اضطرّ معه فيصل للتوقف على جانب الطريق والترجّل من المركبة . هرول باتجاه الطرف الأيسر من الطريق بحثاً عن صيدليّة . وجد واحدةً على مرمى حجر من ساحة النصر وسط بغداد . ابتاع شريط دواء يوصف لآلام الكلى وغادر مسرعاً لكنّ هزّة عنيفة أسقطته أرضاً . استقبل فيصل مئات الشظايا المتناثرة من الواجهات الزجاجيّة للمحال التجاريّة . كان انفجاراً هائلاً لمركبة مفخخة في شارع السعدون أحدث جلبة كبيرة . حاول أن ينهض ، فلم يقدر .

مصدر النيران المشتعلة يشير إلى شارع السعدون حيث ركن سيّارته . أصوات العيارات النارية أربكت المارّة وصاروا يفرّون باتجاه الأزقّة وخلف الچنابر . شعر فيصل بأنّ عائلته في خطر وعليه أن يصل لإنقاذهم مهما كلّف الأمر . اتّكأ على يديه المدمّاة واستعان بحائط الصيدليّة ونهض ، بعدما فقد الدواء الذي ابتاعه لزوجته رباب . خطوات كانت تفصله عن رباب وبناتها لكن جراحه أوصلته متأخراً ، فقد كانت رباب وليلى وسلمى متفحّمات داخل السيّارة . لقد احترقت كل المركبات المتوقفة على جانبي الطريق ومات ما يزيد على الستين شخصاً يومذاك .



جُنّ فيصل منذ تلك اللحظة وتحوّل إلى صعلوك تائه في طرقات بغداد ، وصار يصيح كلما مرّ بشارع السعدون «نارك يا وطن نارك» . أُدخِل المصحّة غير مرة ، وكل مرة يخرج بحال أسوأ مما مضى . وبعد سنتين ومع مزيد من المسكّنات والمهدّءات والمنوّمات باع فيصل بيته بسعر بخس ، ثم ألحق به الأرض التي ورثها عن أبيه ورحل . لقد فرّ من نار الوطن التي أحرقت حبيباته الثلاث ، رباب وسلمى وليلى .

لملم نفسه وهاجر إلى الشام . هام في حواري الشام شهوراً ثم ركب البحر في رحلة الموت الطويلة . هاجر بحثاً عن بلدةٍ تنسيه منظر ابنتيه المتفحّمتين . وبعد أربعة أيام بلياليهن وصل الضفّة الأخرى من المتوسط برفقة خمسين مهاجراً فرّوا من ظلم أوطانهم .

تابع فيصل رحلته حتى حلّ لاجئاً في الدنمارك . كان يعتقد بأنّ هواء كوبنهاغن سيشفي جراحه وينسيه حرّ ناره ، لكن كيف ومثل فيصل يموت عندما ينقطع عنهم تيّار الهمّ والغمّ؟!

لم يمض أكثر من شهرين حتى عادت إليه وساوسه . كان فلاش باك قد ومض بسرعة الضوء في رأسه وأعاد عليه شريط أحزانه الطويل . صار يرى صورة ابنته الصغيرة ليلى وهي متفحّمة كلما مرّت أمامه سيّارة ، فينادي عليها : «نارك يا وطن نارك» ثم يجهش بالبكاء .



دخل ذات مرة في موقف عام للسيّارات وبيده علبة كبريت محاولاً إضرام النار في السيّارات المركونة ، فأمسك به أحد أصحاب المحال المجاورة واتصل بالشرطة . حضرت سيّارة الشرطة بعد ثوان وأمسكت بفيصل . أودع السجن لمدة سبعة أيّام عُرض خلالها على الفحص الطبّي ، فتبيّن بأنّه يعاني من هيستيريا تستوجب إيداعه في المصحّة النفسيّة .

عُيّنت الأخصّائيّة النفسيّة هيلدا مشرفةً على حالته ، وصارت تلتقي به كل يوم ساعتين تامّتين يقضيهما فيصل بتكرار حكايته . كان يكرّر قصة الانفجار الذي وقع في شارع السعدون ليس لهيلدا فحسب بل لكل من يلتقيه في المصحّة ، حتى حفظ الجميع حكايته عن ظهر قلب .

كان فيصل يعتقد بأنّهم لا يسمعونه لذلك يلجأ للصراخ ، وأحياناً للعواء . كان يعترض طريق المرضى في المصحّة : «هل سمعتَ بقصّة رباب؟ رباب التي ماتت في شارع السعدون؟ لقد احترقت هي وسلمى وليلى ولم يبقَ إلا فيصل السادس عشر ، أنا» . لقّب نفسه بعد أن مرض بفيصل السادس العشر ، لا أدري ما السبب .

لم يجبه أحد . كانوا يكتفون بالتبسّم ويحاولون التملّص منه . كان المسكين يصرخ في وجوههم عندما ينتهي من سرد الحكاية : «أنتم حمير؟ حمير أنتم؟ رباب ماتت . . رباب ماتت . . سلمى ماتت . . ليلى ماتت . . حمير . . حمير» ثم



يرمي بنفسه على الأرض ويبدأ بالتدحرج وهو يردّد «نارك يا وطن نارك» .

خضع فيصل إلى جلسات الكهرباء بعدما فقدت الأدوية تأثيرها عليه ولكن دون جدوى ، فبعد يومين أو ثلاثة يعاود الصراخ والشتائم . كان يتعرّى في دهاليز المصحّة أمام المرضى وهو يضحك أو يبكي أو يعوي ، وكلما أمسك به الموظّفون ليعيدوه إلى سريره ، بدأ بالصراخ والشتائم .

ذات نهار وبعد جلسة كهرباء هدّت جسده ، دخلت عليه هيلدا لتطمئن عليه ، فوجدته حزيناً يبكي .

- لمَ تبكِ يا فيصل؟ سألتْ .

- أبكي على رباب يا هيلدا؟ أجاب .

- لا تبكِ يا عزيزي ستجتمع بها يوماً ما . . البكاء لا ينفع ، قالت هيلدا وهي تعيد عليه الغطاء وتهمّ في الخروج ، فنادى عليها فيصل :

- هيلدا . . هيلدا .

- نعم يا فيصل .

- هل بكيتِ يوماً من الأيّام؟

- نعم ، بكيت كثيراً .

- متى؟

- عندما تركني صديقي بعد معاشرة طويلة .

- فقط؟



– وعندما ماتت قطّتي في الشتاء الماضي .

– فقط؟

– مممم وأتذكر أنّي بكيت مرة عندما تأخّرت الطائرة وظنّ أبي بأنّ رحلتنا إلى باريس قد أُلغيت وعلينا العودة إلى البيت .

أبعد فيصل الغطاء عن جسده ، وقف على السرير ، خلع بنطاله ثم أدار عجيزته باتجاه هيلدا وضرط ضرطة طويلة وقال :

ـ هذه لكِ ولحزنِك يا هيلدا . . نارك يا وطن نارك .



فوق بلاد السواد

كعادته كان غسّان نائماً على الأريكة وسط الدار . يتقلّب يميناً وشمالاً . كان المكان ضيّقاً ، ويتكاسل عن تغييره والدخول إلى غرفة نومه . اعتاد على النوم في الصالة أمام التلفاز في الليل وفي النهار أيضاً . كسولاً كان غسّان ، لا يقوى على شيء سوى التدخين وشرب الشاي . فقد عمله بعد عام من وصوله إلى بلجيكا والإقامة بها كوطن بديل . كره حياته وصار مثقلاً بها ، ولولا كريستين لوضع حداً لها . فقد أقدم ذات مرة على الانتحار وكاد أن يفعلها ، لكنّه رأى وهو يلفّ الحبل حول عنقه عيون حبيبته كريستين ولهفتها عليه ، فتوقّف .

تعرّف عليها غسّان في القطار بين فرنسا وبلجيكا . كان وقتئذ مهاجراً غير شرعيّ قفز إلى اليابسة بعد رحلة طويلة في عرض البحر ، وصار يتنقّل بالقطارات بلا هويّة . كانت كريستين عائدة إلى بلجيكا بعد زيارة قضتها في الريف الفرنسي عند جدتها صاحبة الثمانين عاماً . عندما ركبت القطار ظلّت تبحث عن رقم المقعد المكتوب في التذكرة ، فشاهدت مهاجراً فوضوياً يمدّ جسده على المقعدين معاً ، ويغطي



بعض وجهه بجريدة . لقد كان غسّان ، فهو كائن نائم كما كانت تطلق عليه أمه ، الحاجّة سليمة .

وقفت عند رأسه وقالت :

- يا سيّد ، يا سيّد ، لو سمحت . .

فانتبه غسّان ليجد فتاة جميلة تنده عليه . اعتدل في مقعده وأومأ لها برأسه واعتذر . ثم أحضر لها فنجان قهوة طمعاً في التقرّب إليها فكانت كما أراد . رافقته منذ يومه الأول في بلجيكا . شهدت فرحته بحصوله على حق الإقامة فيها . علّمته حزمة كلمات يستعين بها في حياته اليوميّة . بحثت له عن عمل مؤقت يغطّي مصاريفه اليوميّة . لم تدّخر جهداً لإسعاده لأنّها أحبّته . كان يبادلها الحب ذاته رغم حزنه وعدم اكتراثه بالحياة ، فغسّان لا يحبّ حياته ويعتقد بأنّه مكرهٌ عليها . ما فاقم الأمر عليه ، فقدانه لعمله وتحوّله إلى عاطل . حيث كان يقضي الليل في متابعة الأخبار والبكاء على ما وصلت إليه الأمور في العراق ، والنهار في النوم على الأريكة وسط الدار .

عندما استقرّ في نومه ، طُرق الباب . كانت طرقات رقيقة . فتح الباب فشاهد كريستين تحمل بطاقتين جميلتين وباقة ورد . نفختْ في الهواء قبلة نحوه ثم هزّت خصرها وغنّت أغنية عيد الميلاد .

«آها ، إذن حلّت ذكرى اندلاقي مكرهاً إلى الدنيا» قال



غسّان وهو يبادلها ابتسامة باهتة . جذبته كريستين خارج عتبة الدار وقالت : «مع أنّي أودّ معرفة سرّ إكراهك على المجيء إلى الدنيا ، لكن لا وقت لدينا يا حبيبي . لقد أعددت لك حفلة عيد ميلاد مميّزة ، فقط سلّمني نفسك» .

- حسناً يا حبيبتي ، أنا لكِ ، ردّ غسّان .

وبعد ثلاثين دقيقة من السياقة وصلا إلى فناء واسع يتوسّطه منطاد كبير ملوّن . قالت :

- في هذا المنطاد سنعرج إلى السماء ونحتفل هناك عند تلك الغيمة ، هل تراها؟

- نعم أراها .

قدّمت البطاقتين إلى الموظّف وركبا المنطاد وانطلقا بسرعة ملفتة ، فالريح كانت عالية والسماء صافية . كان غسّان جالساً يمسك برأسه بسبب فوبيا الأماكن العالية التي يعاني منها منذ صغره . ناولته كريستين زجاجة فيها مشروباً يميل لونه إلى الصفرة الباهتة ، ظنّه ماء اللبلبي الذي كانت تسقيه إيّاه أمّه سليمة عندما كان يشكو لها حالة الدوار ، فكرعه طمعاً بالشفاء وسَكر .

- ماذا فعلتِ بي يا كريستين؟ ماذا سقيتني يا مجنونة؟ سألها معاتباً فردّت بضحكة مجلجلة :

- ماء لبلبي بلجيكي (وأردفتْ) لا عليك ياصديقي ، فقط انهض لأريك الدنيا من فوق .



أمسكَ بيدها واستقام . كانت الريح غربيّة تدفع المنطاد بسرعة هائلة نحو المشرق . مرّا بأوربا «العجوز» مدينةً مدينة ، فكانت المدن يكتنفها الشباب . شاهدا أبنية عالية وبحاراً صافية وجبالاً غانية . شمّا عطراً يفوح من مزارع الورد ، وشاهدا دلافين تتقافز قرب الشواطئ . كان كل شيء ملوّناً في تلك الأرض .

الدوار بدأ يتبدّد من رأسه ، وحلّت محلّه حالة ضحك هستيري . كانا يقهقهان بلا سبب . فهي تشير مثلاً إلى نهر من بعيد وتضحك ، وهو يبادلها الضحكة بصوتٍ عال!

ساعات طويلة قضياها بالضحك ، ما كان لها لتنتهي لولا أن شمّ رائحة خردل في السماء . كانت رائحة بارود نتنة تنبعث من الأرض . توقّف غسان عن الضحك وسأل مستفهماً :

– أين نحن يا كريستين؟

– إنّه الشرق يا صديقي ، ردّت ، فانتبه غسّان وطارت السكرة من رأسه .

تبدّد الفرح وبدأت روحاهما تنقبضان كلّما اتجه بهما المنطاد نحو بلاد السواد . دخان أسود كان يلبّد تلك السماوات بينما تنبعث من الأرض رائحة الجثث المتفسّخة .

«اممم إنّه العراق المحترق يا غسّان» قال في نفسه ، ثم توجّه إلى صاحبته وقال :



- هل ترَين تلك البقعة السوداء؟
- نعم ، أراها .
- هل ترَين تلك الدار؟
- أيّ دار؟
- الدار المحاذية لمعمل الطابوق الحجري ذاك .
- نعم أراها ، ما بها؟
قال :
في هذه الدار الموحشة ، في هذه الأرض المحترقة ، وتحت هذه السماء المعفَّرة بالخردل ، دلقتني أمّي وهي متّشحة بالسواد ، فهل عرفتِ الآن سرّ مجيئي مكرهاً إلى هذه الدنيا يا كريستين؟ لو كان الأمر بيدي لما غادرت ظهر أبي البتة ولبقيت قابعاً هناك؟

فقالت وهي تمسح دمعة نزلت من عينيها الجميلتين : «أجل يا عزيزي ، عرفتُ عرفتُ ولكن بالله عليك دعنا نرحل» ، ثم جذبته وطبعت على خدّه قبلةً سريعة وقالت : «دعنا نطير يا صديقي مادام الهواء لم ينفد بعد من المنطاد ، أمّا الدار فلها ربّ يحميها» .

قال غسّان ونوبة الضحك قد عاودته :
- أيبـــاه . . أم اللبلبي تعرفين الله؟!
فردّت بضحكة عاليّة ولهجة عراقيّة مكسّرة :
- شا شلون هبيبي . . شا شلون؟!



جبّار أبو الدين

ذات يوم أمرني أبي بجلب صينيّة شاي من مقهى الجماهير المجاورة لدكاننا في السوق . كنت حينها في العاشرة من عمري ، لم أعتد بعدُ دخول المقاهي ولم أتعرّف إلى جلاّسها . كان مجلس (الشوعيين) كما يسميهم عبّود ، صاحب المقهى ، منعقداً عندما دخلتُ لطلب الشاي . كانوا مجموعة من المعلّمين والمثقفين التقدميين ، يجتمعون كل نهار في الركن الأيسر من مقهى الجماهير . يشربون الشاي ويدخّنون السجائر ويقرأون الصحف اليوميّة ويثردون الكلام .

مشكلة عبّود أنّه كان بطيئاً بتحضير الطلبات ، لذلك وقفت أنتظر طويلاً حتى تجهز الشايات . في ركن الشيوعيين كان يجلس الأستاذ عبد الغني بديوي وهو شيوعي عتيق ، كان يحكي لرفاقه عن قصته مع وحيد ، كاتب المدرسة الذي أقنعه بـ«خرافة» يوم القيامة . قال بأنّه وبجملة واحدة كسب وحيد الكاتب إلى صفوف الحزب : «الشاة المذبوحة لا يهمّها السلخ» .

في الواقع هزّتني هذه الجملة من الأعماق وأربكتني حين



سمعتها ، علماً بأنّ لساني كان متعوداً على الدندنة بكلماتٍ أجمل كنت قد حفظتها من كثرة سماعي لدعاء جدي كل صباح . كان رحمه الله يردد بخشوع : «يا من دلع لسان الصبح بنطق تبلّجه وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه ، يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته» ، وكنت معجباً جداً بتلك العبارات الأنيقة دون فهمي لمعناها . لكن جملة الأستاذ عبد الغني بديوي على بساطتها هزّتني وخربطت خيوط عقلي الصغير . كانت بسيطة ومنطقيّة لعقل طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره ، لاسيما وأنّي سمعتها من فم معلّم ذي خبرة في البيان والتبيين ، ومن يدري ربما أرسلها إلى أذني قاصداً!

في الأثناء جهزتْ صينيّة الچاي وحملتها إلى خطار أبي بالهنا والشفا . كان بودّي حينها أن أسألهم عن معنى الجملة التي سمعتها في المقهى ، ولكنّي خفت من توبيخ أبي لأنّي دنوت من مجلس الشيوعيين هناك . ولأنّ العبارة كانت قوية تركتني أفكّر بها طوال يومي . قررت في اليوم التالي أن أسأل عنها الأستاذ جبّار ، معلم الدين في المدرسة ، فما دامت المسألة تتعلق بيوم القيامة فليس لها إلاّ أبو الدين .

– استاد استاد ، ناديته ، فأجاب بفظاظته المعهودة :

– ها . . شكو؟

– استاد ، إحنه وين نروح إذا متنا؟



- إلى القبر طبعاً .
- وبعدها؟
- بعدها نُحشر يوم القيامة . . المؤمن يروح للجنة والكافر للنار .

لم يشفني جواب معلّمي فاستزدته : «ولكن كيف تؤذي النار شخصاً ميتاً ، والشاةُ المذبوحة لا يهمّها السلخ؟!» قلتها هكذا دفعة واحدة . قلتها دون علمي بأنّها ستجعل الأستاذ جبار ممتعضاً لهذا الحد . كاد الرجل أن يفلت أعصابه . بل لا أبالغ إذا أخبرتكم بأنّي رأيت الشرر يتطاير من عينيه الجاحظتين .

صاح بي صوتاً كاد يسكتُ قلبي الصغير لولا رحمة ربّي . ثم أردف ملوّحاً بعصاه الطويلة : «وِلَك انجب لا أصلخ جلدك صلخ . . منين جبت هاي السوالف الطايح حظها ، بعدك بگد الگملة ، إذا كبرت شلون؟!» .

أحسستُ بالإهانة حينها ولكني بلعتها . أغلقت فمي و(انچبّيت) من ذلك الوقت ولم أتجرأ بعدها على سؤاله بشيء . ما زاد الطين بلّة أنّ جبّار «أبو الدين» هذا ، صار مؤذّناً في مسجد المدينة بالرغم من قبح صوته ، فأمسى يذكّرني بعنف توبيخه لي كلما صاح الله أكبر .

هذه الحادثة مع قدمها إلاّ أنّ أثرها ظلّ في نفسي ، وظلّت مرارتها تطفو إلى سقف فمي كلما مرّ موقف يذكرني بها . تماماً



كما حصل يومَ دُعيتُ لزيارة ابني محمد في صفه الدراسي . حين دخلت الصفّ فوجئت بأنّ الجدران قد امتلأت صوراً ورسومات تحكي كلها عن الإسلام والمسلمين ، نفّذها تلاميذ الصف الخامس الابتدائي .

لقد رأيت طفلاً اسمه نيكولاس قد رسم الكعبة وكتب عليها : «هذا شيء مقدس» إي والله هكذا كتب ، وآخر رسم صورة لمسجد بقبة ومنائر . ورأيت طفلة بجدائل ذهبية رسمت خمس زهرات عبّاد الشمس على قرطاس كبير ، وكتبت في قلب كل واحدة منها ركناً من أركان الإسلام . على باب الصف خط طفل باللغة النرويجية : «المسلمون يحبّون يسوع» . هذا ما رأيته بعينيّ هاتين ، والأغرب من هذا أنّ الشقراء إيلين ، معلمة الدين كانت تشرح لهم عن الإسلام وكأنّها درست علومه في الأزهر! كانت توضّح لهم كل شيء بالصوت والصورة على الصبورة الإلكترونية .

عندما سألتها عن معنى كل هذا ، قالت : «هذا الأسبوع خصّصته للحديث عن الإسلام كي يتعرّف التلاميذ على دين زميلهم (موهمّد) ودعوتك كي تصحح لي معلوماتي إن كانت خاطئة» .

حاولت استيعاب المفاجأة حينها بالتبسّم ثم شكرتها وقلت : «لا ، بالعكس ، معلوماتك جيدة جداً وأسلوبك رشيق جداً ، وهذا الأمر أسعدَ محمداً وجعله في موضع زهو وفخر بين



رفاقه كما ترَين» ، ثم ودّعتها قائلاً :

- اسمحي لي أن أشكركِ بجملة عراقية يصعب ترجمتها .

- حسناً . . تفضلّ ، قالت بعدما ابتسمت .

- إيلين . . فدوة يروح لِك جبّار أبو الدين .

- ماذا تعني؟

- أعني : استمتعي بوقتك أيتها المربيّة الفاضلة ، إلى اللقاء .



يا له من وطن!

قبل عشرين عاماً ، وفي يوم صيفي قائظ ، سيق حَمَد إلى السجن . لم يكن يدري لماذا أودعَ هناك ، لكنّه كان يضحك كلّما عاد من غرفة التحقيق . كان حمد البدوي يعمل راعياً في بادية السماوة جنوبيّ العراق . يملك ثمانين رأساً من الغنم الموسومة . يتناوب على رعايتها مع أخيه حمود . كان حمد وحمود قد فقدا أباهما في الحرب ولم يستلما جثّته . لقد تفسّخت في الأرض الحرام . أما أمّهما ، فتعوّدت العيش وحيدة في الخيمة مع كلبها حتى يعود ولداها الوحيدان من المراعي البعيدة .

أدخلوه معصوب العينين ، مكتوف اليدين ، مدمّى . كان المحجر الذي رُمي فيه حمد ضيّقاً ، رطباً ، سيّء التهوية ولا تمرّ به خيوط الشمس البتة . كان حجرةً بمساحة أربعة أمتار مربّعة خالية من النوافذ يتقاسمها سجينان ، ثالثهما حمد البدوي .

سألاه وهما يمدّانه على الأرض ليطبّبا جراحه بخرقة متّسخة :

– شنو تهمتك أبو الشباب؟



- حمد لو حمود؟ ردّ حمد .

لم يفهما آنذاك ما كان يعني بـ(حمد لو حمود؟) لكنّهما لم يكترثا كثيراً ، فقد تعوّدا على هذيان ما بعد التعذيب .

لقد كان المتهم ذاك الزمان يأتي وهو ينزف من منخريه بعدما تسري الكهرباء في جسده لساعات طويلة . كان الجلاّدون في غرف التحقيق يشدّون السلك الكهربائي بأذنيه وهو معلّق في الهواء ، فتمرّ الكهرباء في رأسه حتى يغمى عليه . وعندما يسقط ، يرشّونه بالبول ليستفيق وتبدأ حفلة الجلد بالهراوات السميكة . كانت تستمرّ لساعات طويلة .

لم يلج أحدٌ هذا السجن إلاّ وتعرّض لحفلات التعذيب تلك . كان ضبّاط التحقيق يتفنّنون في تعذيب ضحاياهم : جلد ، فلقة ، خيَگانيّة ، بطل ، كهرباء ، برميل النار ، الخ الخ من طرق التعذيب المستحدثة التي تُسحب بها الاعترافات عنوةً . كان المسكين يعترف بما يشتهون كي يخلص من التعذيب ، وإلاّ سيضطرّون إلى جلب زوجته وتعريضها للإهانة والضرب أمام عينه . حدث مثل هذا الكثير ، ولكن حمد لم تكن له زوجة ليخاف عليها ، وأمّه طاعنة في السنّ ، قد لا يتورّطون بجلبها من الصحراء لأنّها ستموت في الطريق بلا شك .

كانت الدماء تغطّي جسده . سلّم نفسه للنوم ما إن وصل إلى المحجر . كان رفيقاه منشغلَين بالذكر والأدعية ، فكلّ واحد



منهما كان قد بَصَمَ على حزمة من التهم ، أخفّها تودي إلى حبل المشنقة . كانت التهم التي وجّهت إليهما مضحكة فيما لو قرأها القضاة في العالم الحرّ . فمثلاً كانت تهمة أحدهم أنّه رمى عقب سيجارة على صحيفة مقلوبة ، وعندما أخذت الجمرة مكانها ، وجد صاحب القهوة أنها قد ثقبت عين «السيّد الرئيس» من الجهة المقابلة ، فكتب تقريراً وتم إلقاء القبض على صاحب السيجارة . لقد صار متّهماً بتعمّد الإساءة إلى شخص الرئيس ، فأودعوه السجن وتناسلت عليه التهم حتى ألبسوه ألف قضيّة وقضيّة .

الآخر أيضاً كانت تهمته مضحكة . كانت الاتجار بالآثار . علماً بأنّه يبيع ويشتري بالخواتم والخرز في سوق هرج ولا علاقة له بالآثار ، لكنّ جاره كان حزبيّاً طازجاً ، حاول أن يثبت ولاءه للحزب والثورة عن طريق كتابة التقارير وكسر الرقاب ، فكان المسكين ، بائع الخواتم واحداً من ضحاياه . أمّا حمد فلا يدري أحدٌ بتهمته . لقد نام بعدما قال بأنّه متّهم بـ(حمد لو حمود؟) .

في الغد نادى عليه كبير السجّانين ، العريف أبو كفاح . أخرجه من المحجر . شدّ وثاقه إلى الخلف . وضع عصابة سوداء على عينيه واقتاده إلى غرفة التحقيق . كان ضبّاط التحقيق بانتظاره هناك . أُدخِل مكتوف اليدين ومعصوب العينين . رفسه أبو كفاح من الخلف ، فأسقطه على وجهه ، عند قدمي ضابط



التحقيق . ركله الآخر فتدحرج صوب أحد الجلادين العتاة . حمله بيدٍ واحدة وأوقفه على كرسي حديدي عند الباب . رفع يديه وهما مكتوفتان من الخلف وعلّقهما على الكنّارة . دفع الكرسيَّ بقدمه ، فتدلّى حمد وصار يتأرجح في الهواء . مزّق الجلاّد ملابسه وخلع بنطاله وسرواله الداخلي ، فتحوّل إلى ما يشبه الذبيحة المعلّقة في دكاكين الجزّارين . شدّ جلاّد آخر سلكاً كهربائياً بإصبع قدمه وسلكاً آخر عقده بذَكَرِه ، وبدأ يدير بالهاتف المرتبط بالسلكين ، فتسري الكهرباء بالجسد المتدلّي . كان الضابط جالساً يضع قدميه فوق المكتب ويتابع مجريات التعذيب . وكان بين الحين والآخر يلقي عليه السؤال ذاته : «حمد لو حمود؟» فيردّ وهو يتلوّى من الألم : «حمد» .

- حمد لو حمود؟
- حمد .
- حمد لو حمود؟
- حمد .

وهكذا حتى يقضي وطراً من التعذيب قبل أن يغمى عليه ، فينزلونه ليتبرّع أحد الجلاّدين بالتبوّل على وجهه كي يفيق وتُستأنف الحفلة من جديد . عشرين يوماً بلياليهنّ مرّت عليه وهو تحت سياط التعذيب دون أن توجَّه له تهمة واحدة . كانت فقط جملة واحدة : «حمد لو حمود؟» فيجيب : «حمد» ، لتزيد عليه السياط ضعفين!



عندما علم أخوه ، حمود بالأمر باع لأجله خمسين شاة ودفع ثمنهنّ إلى أحد السماسرة ، وأخرجه من السجن .

لقد تبيّن فيما بعد بأنّ أحد الرُعيان قد وشى بهما حَسَداً . كان قد أوصل وشاية إلى الفرقة الحزبيّة بأنّ حمود البدوي يسبّ الحزب والثورة كلّما طلع النهار ، فأمسكوا بحمد ظنّاً منهم بأنّه حمود وجرى عليه ما جرى .

المسكين كان بينه وبين الموت حرف واحد ، فلو قال في غرفة التعذيب وقتئذ بأنّه حمود لطار رأسه . . يا له من وطن!



عضّة شلّوع

«أنت أملي في مشروعي القادم فلا تخذلني» ، قال لي صديقي محمد دگمة وهو يشير بيده إلى بناية الفرقة الحزبية يومذاك . كان بيتنا يقع مباشرةً خلف مقر فرقة القعقاع لصاحبها حزب البعث العربي الإشتراكي ، وكان محمد دگمة قد قرّر في شطحة من أحلام المراهقين أن يكون سياسيّاً . . لمَ لا؟!

حين سمعت صوت صفيره المتقطع في الشارع خرجت وبيدي ساندويج قد صنعته بنفسي . كان عبارة عن خبزة حارّة وضعت في داخلها رأس فجل كامل وعودَين من الكرّاث .

جلسنا على الجرف ليشرح لي صديقي ما ينوي فعله وأنا أقضم الفجل الملفوف بالخبز وأومئ برأسي . قال لي بأنّه ينوي تأسيس حزب معارض اسمه حزب الأخَوين ، لأنه ـ على حد زعمه ـ يملك «مشروعاً سياسيّاً جبّاراً وأفكاراً خلاّقة لبناء البلد» ، هكذا قال .

عندما ذكر لي اسم الحزب توقفت اللقمة عن الدوران في فمي وسألته :

– حمّودي . . هذا اسم حزب لو دكان بقالة؟!

– لا يا أخي ، هذا حزب خاص بينه ، أنا وأنت بس ،



لذلك سمّيته حزب الأخَوين . أنا الزعيم السياسي للحزب وأنت قائد الجناح العسكري .

كنت لم أزل وقتئذ مؤمناً بأفكار محمد دگمة الخلاّقة لذلك وافقته على الفور . أنهيت السندويچ ، مسحت يدي بصدري ومددتها له قائلاً :

– على بركة الله يا صديقي سر وأنا خلفك .

– على بركة الله ، ردّ دگمة .

في الغد اتفقنا على أول عملية مسلّحة لحزب الأخوين المعارض بعدما قرّر دگمة ساعة الصفر . كانت العملية عبارة عن رمي الزجاج الخلفي لفرقة القعقاع بالحجارة . الغاية كما مدوّن في الخطة : «زرع الرعب في قلوب البعثيين وإعلامهم بأنّ هنالك حزباً معارضاً سيقضّ مضاجعهم» .

عند الساعة العاشرة ليلاً اختبأتُ خلف سياج الفرقة وأنا أمسك بيدي صلبوخاً كبيراً ، بينما احتفظت بآخر في جيب بجامتي البازة حسب أوامر الزعيم دگمة ، قال لي بلغة حزبيّة بليغة :

– عندما تسمع صوت الديك ارْم صلبوخك الأول فإن أصاب فبها ونعمتْ ، وإن أخطأ فارمِ الثاني واهرب باتجاه دربونة بيت خيّون ، مفهوم؟!

– مفهوم سيّدي .

عوعو عوعووووو ، صاح دگمة وهو يقف قريباً من رأس الشارع كي يراقب دخول وخروج الحرس بعد نجاح العملية بإذن



الله تعالى . سمعت الصوت فوضعت الصلبوخ في (المحچال) وأرجحته في الهواء ثم قذفته باتجاه النافذة فأصابها وتشظّى الزجاج ، لكنّي ارتكبت حماقةً لم ترضِ محمد دگمة فيما بعد ، لقد طمعت ورميت الصلبوخ الثاني ، فعلم الحرس مصدر الصلابيخ وهرولوا باتجاهنا .

هربت نحو الدربونة وكان على دگمة أن يعرقل حركتهم ويؤخّرهم إلى أن أتوارى عن الأنظار ، لكنّ المفاجأة غير السارّة أن الزعيم السياسي المفدّى محمد دگمة كان قد خاف من الحرس وكاد أن يفعلها على نفسه ، وبدلاً من عرقلتهم سمعته يصيح : «منّاك منّاك . . بالدربونة بالدربونة»!

هذا ما جرى صدّقوني ، لقد باعني الزعيم عند أول عمليّة للحزب ودلّهم على وجهتي ، غير أنّي كنت خفيفاً رغم ما فعله بي سندويچ الفجل والكرّاث ، فأطلقت قدمَيّ إلى الريح وفلتّ منهم . انعطفت من الدربونة باتجاه محلّة العربنچيّة ، وثبتُ على حائط بيت ارضيوي كي أكمل طريقي نحو مخرج المدينة ثم الأرياف ، لكنّي انزلقت من الحائط وسقطت في أحضان كلب ارضيوي ، شلّوع . كان كلباً شرساً لم يقصّر في استقبالي .

لقد مرّ على هذه الحكاية عشرات السنين ولا زلت كلّما تحسّست النياشين التي تركهنّ شلّوع في جسدي أقول في سرّي :

«التوبة إذا وثقت بزعيم سياسي يدّعي أنّه يملك مشروعاً جبّاراً وأفكاراً خلاّقة لبناء البلد» .



عدس

أخبروه بأنّ زوجته قد أنجبت تسعة توائم . تسعة ذكور جاؤوا إلى الدنيا دفعةً واحدة . كان فؤاد يعلم بأنّ ثمة توأماً في الطريق ، غير أنّ زوجته وطبيبتها قد اتفقتا على أن يبقى العدد سراً دعماً لعنصر المفاجأة ، لكنّ الأمور لم تسر كما أردنَ ، إذ لم يتفاجأ ولم يسعد . لقد أصابه الذهول والصدمة حين أخذته الممرضة إلى صالة الخدّج وقالت مشيرةً بكلتا يديها : «تفضل يا سيّد . . لقد صِرتَ أباً لكل هؤلاء» .

كانوا تسعة ذكور يشبهون القطط الصغيرة ، بلا شعر . ساكنون بلا حركة ، إلاّ أوسطهم ، أسماه عدس لأنه يشبه إلى حد بعيد هرّ بيت جارهم ، عدس .

عدس الصغير كان يتحرك ببطء شديد ويرفع أحد أصابعه الناعمة بوجه أبيه كأنّه يريد أن يقول : «هذا لك يا بابا» . المسكين كان كثير الغازات لم يمنع نفسه من إطلاق البالونات في حضرة أبيه مرحّباً به على طريقته الخاصة : «طيييييط لك يا بابــا» .

لم يكن فؤاد مكترثاً لضرطات عدس ، فالصدمة ما زالت



تحتل عقله وتسيطر على تفكيره . وبلا شعور أحضر كرسياً كان مركوناً قرب الباب وصعد فوقه وخطب في قططه التسع : «أيها الصغار . . اسمعوني جيداً ، فلن أكرّر ما أقوله بعد اليوم . لقد قرّرت ألاّ أفعل بكم ما فعلته بإخوتكم من قبل ، حيث تركتهم يعيشون في بلاد الغربة هذي ، فبلدكم أولى بكم . لقد صار العراق بلداً ديمقراطيّاً جداً ، يمارس فيه أعمامكم وأخوالكم الديمقراطيّة كل أربعة أعوام ، يختارون ما يشاؤون كما عباد الله . أهلكم يا فراخي اختاروا لكم هذه المرة رجال دولة يحفرون الصخر من أجل الوطن . لقد هاتفوني غير مرة بأنّهم كنسوا الفاسدين من جادّة الوطن ورشّوها بالماء من أجل مستقبلكم ومستقبل أقرانكم . لذلك قرّرت بأن أدفع بكم إلى هناك حيث الحريّة والأمان والعزم والبناء ولن أبقيكم نهباً لسرطان الغربة» .

- طيييييييييييط .

أطلقها عدس طويلةً هذه المرّة وكأنّ كلام الأب لم ينل استحسان هذا الهرّ المشاكس ، فانتبه فؤاد ليجد نفسه نائماً في صالة الانتظار داخل مطار أوسلو ، واللوحة أمامه تشير إلى أنّ الرحلة ٣٦٠٧ المتجهة إلى بغداد قد غادرت . وضع علكةً نرويجيّةً في فمه ، ثم حمل حقيبته وعاد إلى شقّته الباردة ، بانتظار الربيع .



راضع مع الشيطان

شنّان راضع مع الشيطان . هكذا كان يردّد ياسين العطّار وهو يعالج ذبابةً كانت تطنّ فوق رأسه . كان يمسك بيده (مهشّة) لطرد الذباب ويتذمّر لكساد بضاعته ، فمنذ يومين لم يدخل زبون إلى دكّانه المليء بالمعطّرات وقناني الشامبو .

سأله صباح ، ابنه الذي غادر المدرسة مبكراً ليتعلّم صنعة العطّاريّن :

- كيف رضع شنّان مع الشيطان يا أبي؟

لم يجبه ، كان منشغلاً في مطاردة الذبابة التي سلبت راحته . . لا تتحرّك ، الذبابة فوق رأسك ، اثبت . . طْرررّبّ ، ضربها ياسين فطارت .

- ستصطادها في المرة القادمة يا أبي ، ولكن أرجوك حدّثني عن شنّان ، ماذا فعل ؟ سأل صباح ، فردّ ياسين :

- اسمع ياغبي : شنّان مشعوذ يعتاش على بيع الأحراز الجالبة للرزق والتعاويذ الحافظة للأرواح . كان يضحك على أهل القرى بأنّه يفكّ عقدة العريس في ليلة زفافه ، ويتفل في قدح الماء ليتحوّل بقدرة قادر إلى مقوّ جنسي يتناوله الرجال



قبل أن يناموا مع زوجاتهم .

هكذا كان يوهمهم شنّان ، فكانوا يأتونه صاغرين ، يحملون له الديَكة والنقود تعبيراً عن امتنانهم له . إلا قرية أسوَد ، فأهلها لا يعترفون بتخاريف شنّان ولا يشترون أحرازه بفلسين أحمرين .

- لماذا يا أبي ؟

- لأنّهم كانوا أهل نعمة يتفجّر الخير من بين أيديهم ومن خلفهم .

كان أهل أسود يزرعون الحنطة ويصدّرونها إلى المدينة . كان يمرّ في قريتهم نهر يعشقه سمك البنّي والقطّان . يصطادونه ويشوونه على أقراص المطّال ، ثم يبيعون ما زاد عن حاجتهم إلى القرى المجاورة .

مرّ بقريتهم شنّان المشعوذ يوماً ، فلم يسمع فيها لغواً ولا تأثيماً . كان رجال القرية منشغلين في ذرّ بيادر الحنطة وتنقيتها ، والنساء في رصّ قباب المطّال وتسويتها . رأى الخير وفيراً و(الحلال) يمرح في الحقول ، فأغاظه ما رأى وهمّ بمغادرة القرية .

طْرررِبّ ، ضرب الذبابة ياسين العطّار فطارت . لحقها وهو يخاطب ابنه صباح :

- تِسْمعني وِلَك؟

- نعم يا أبي أسمعك ، أرجوك أكمل ، ردّ صباح ، فأردف ياسين :



قبل أن يغادر شنّان القرية رأى إحدى النساء تحلب بقرة ، وكان قربها يقف ثورٌ عظيم مربوط إلى وتد . توقّف عندها .

- من توقف عندها؟

- شنّان يا غبي . . توقف شنّان عند المرأة وألقى التحية عليها سائلاً شربة لبن . انشغلت المسكينة بتلبية حاجته وفي غفلة منها أفلت اللعين رباط الثور وهرب . هجم الثور على المرأة ونطحها فماتت من ساعتها . سمع أحد الرجال بأن ثوراً قتل أخته فترك بيادر الحنطة وهرول إلى داره . حمل بندقيته بعد أن حشاها بإطلاقة مميتة . صوّبها نحو الثور وأرداه قتيلاً . سمع الزوج بأنّ حماه قتل ثوره ، فحمل بندقيته هو الآخر وهبّ طالباً للثأر . قتل حماه فسمع أهل أسود بالخبر .

- و ماذا فعلوا؟

- حملوا السلاح وانقسموا ، بعضهم ذهب مع صاحب الثور والآخر مع غريمه ، ولم تمض ساعتان حتى صارت مقتلة عظيمة اصطبغ على إثرها النهر باللون الأحمر وتبدّل طعم الماء فيه إلى طعم الدم . عندما سمعت زوجة شنّان بالخبر قالت له : «ماذا فعلت بهم يا رجل؟» فقال : «لم أفعل شيئاً ، فقط أفلتّ الثور» ، فسألت مستنكرةً : «وماذا جنيت من ذلك؟ ألم تعلمْ بأنّ قرية أسوَد ليسوا بحاجتك لأنّهم أهل خير لا يؤمنون بالشعوذة؟» فردّ : «على رسلك يا امرأة ، كفّي عن اللوم وتفرّجي ، سيتقاتلون حتى تحترق بيادرهم ، ويقضي حلالهم ،



ويذهب خيرهم . . عندها فقط سيأتونني صاغرين» .

- والآن ، هل عرفتَ كيف كان شنّان راضعاً مع الشيطان؟

قال ياسين العطّار وهو يطارد الذبابة العنيدة .

- عرفت يا أبي عرفت ، ردّ صباحِ .

اثبتْ . . لا تتحرّك ، طْرررب . . ضرب ياسين العطّار الذبابة فطارت دون أن يصيبها!



أحلام برائحة الجواريب

في أحد المساءات تواعدنا عند الجسر الخشبي . قال صديقي محمد دگمة بأنّه سيعرّفني إلى ماجد عسل ، بائع المجلاّت الخلاعيّة في القرية . كانت أثمان المجلاّت يومذاك مكلفة لا نقدر عليها نحن المنضمّين حديثاً إلى عالم المراهقة ، لذلك كنّا نستأجرها من ماجد مقابل دينار ونصف للّيلة الواحدة . أفرغت حصّالة نقودي واستدنت مائة فلس من أختي الكبيرة لإكمال المبلغ ، ثم ذهبت إلى حيث موقع الاستلام والتسليم .

كان الاتفاق أن يعطيني ماجد أبو العسل مجلةً فرنسيّة ذات الخمسين صفحة ، وأعطيه ديناراً ونصف كبدل إيجار لليلة واحدة ، لكنّي وصلت هناك ولم أجد سوى محمد دگمة واقفاً يقرض بأظفاره كعادته عندما يكون قلقاً .

سألته :

- ها حمّودي ، وين أبو العسل؟ فقال :

- مع الأسف . . نكت بينا إبن الإبنل ، وعندما لاحظ الحيرة على وجهي أردف :



- لا تهتم أبو الزوز ، أنطيني الدينار ونص وباچر أجيبلك أحلى صورة .

سلّمته المبلغ ولم أنم تلك الليلة : فمنذ بلوغي الثانية عشرة وأنا أحلم باقتناء صورة «ثقافيّة» . في الغد وعندما تعلّقت الشمس في كبد السماء تسرّبتُ بهدوء كي لا أوقظ أبي . كان نائماً أمام مبرّدة الهواء وسط الدار . على الباب التقيت محمد دگمة وكان يخبّئ الصورة تحت حزامه . التفت يميناً وشمالاً وبحركة خاطفة أخرجها مثنيّةً وهو يقول : «هاك هاك ، ضمّها بسرعة» .

خطفتها من يده وأنا أرتجف من الخوف . لكن الفضول كان يهرش جلدي ، لذلك وقبل أن أدسّها في جيب بجامتي استرقت النظر إليها ، فوقعت عيني على قماش وليس لحماً . فتحت الصورة وإذا بها دعاية لجواريب نسائية . اشتطت غضباً وأمسكت بدگمة من ياقة قميصه وقلت مهدّداً :

- تقشمرني وِلَك؟ هسّه ترجّعلي فلوسي لا ألعب بيك طنّب .

فرفع دگمة صوته مهدّداً بإيقاظ أبي .

وضعت يدي الأخرى على فمه :

- إششششش . . لا تفضحنا ، فردّ دگمة :

- هِدّ وِلَك ، هِدّ لا أگلّ لأبوك : ابنك يدوّر مجلاّت ثقافيّة وأخلّيه يسوّيك كباب . . هِدّ .



قالها وهو يرفع صوته بشكل تصاعدي ، فلم يبق أمامي وقتها سوى القبول بالأمر الواقع ؛ إذ لو سمع أبي بالأمر لسلخ جلدي ، لذلك تركت دگمة ودخلت إلى الدار نادباً حظّي .

في الليل أخرجت الصورة وبدأت بالتأمّل دون جدوى ، فليس فيها سوى ساق ملفوفة بجوراب شفّاف . خبّأتها تحت وسادتي ونمت مؤمّلاً نفسي بأحلامٍ مع صاحبتها ، فكانت أحلاماً برائحة الجواريب!



حسّون الدردة

كان صبيّاً أملحاً ، أچلحاً ، سائب المنخرين ، ذا رأس كبير تعلوه كفشةٌ لم تر الماء الا لماماً ، ذلك هو حسين بن غافل بن عچرش الدَرِدَة الملقب بحسون الدردة . كان يسكن مع أبيه ، غافل العتّال وأخوته گوني (سعيد) وحِنبز (حميد) في الزقاق المحاذي لبيت شنّان العربنچي .

كان حسون الدردة طفلاً ساديّاً ، وفي الوقت ذاته يعاني من عقدة القيادة ، فهو رغم فقره وبلاهته ورائحته النتنة يتصور بأنه قيادي تنبغي طاعته ، ويتصرف على هذا الأساس .

رأيته ذات مرة يضع حبلاً في رقبة أخيه الصغير حِنبز ويجرجر به في السوق على أنه جرو مملوك ، ومرة يخنق عتوي بيت أم عامر ويعلقه مشنوقاً على السدرة ، بينما يجلس واضعاً رجلاً على رجل كجلادٍ «بايع ومخلّص» .

حدّثني رفاقه بأنّه كان يضع عود فلفل حار في دبر حصان شنّان كلّ صباح ليشيط الحيوان المسكين ويضحك هو . هكذا كان حسّون الدردة يقضي أوقاته في مواقف تشي بعقدة يعاني منها ذلك الفتى المشاكس .



حين تم فصل حسون من المدرسة بسبب سلوكه السيئ وكثرة غياباته ، انطلق في الشارع وبدأ بتشكيل عصابة أطلق عليها لاحقاً : عصابة حسون الدردة .

كانت عصابة حسون تلمّ شعيَط ومعيَط وجرّار الخيط . تضمّ كل طفل خنيث يتعرّض إلى التنمّر من قبل زملائه في المدرسة . كان السبب واضحاً بطبيعة الحال ، فحسون يريد أتباعاً خانعين يسهل انقيادهم مما يرضي عقدة في نفسه .

كانوا ثمانية صبيان ، واجبهم اليومي سرقة السجائر المفرد من چنابر الباعة والاجتماع في بيت الحاج عودة المهجور لتقسيم الغنائم . هذا ما كان يتم في النهار طبعاً ، أما في الليل فكان لهم واجب آخر . كان عليهم السطو على قِنّ الدجاج العائد لبيت سيد دخيل الأعور ، وسرقة ما لا يقل عن دجاجتين وخمس بيضات يتم بيعها في الغد لماجد الصبّي .

لقد علّمهم حسون على السرقة والتدخين والخنوع التام لسلطته المطلقة ، حتى إنّه في يوم من الأيام كان قد أخذهم إلى المدرسة وأوقفهم أمام سياجها الخلفي ، ثم أمرهم بخلع بناطيلهم ، وقال لهم «بولوا» فبالوا على المدرسة جميعهم دون تردد .

حسون الدردة ـ صاحب مقولة بولوا ـ لا أدري أين حلّ به الدهر! هل ما زال يعاني من عقدة القيادة أم زاولها فعلاً ؟ لا أدري . هل ما زال سادياً يتلذذ بتعذيب ضحاياه أم تلقّفته جهة



إرهابية علّمته الساديّة على أصولها؟ لا أدري .

ربما يكون قد فجّر نفسه بحزام ناسف بعدما صار «مؤمناً» أو تم تدريبه على زراعة عبوات على الطرقات . ربما صار قاتلاً مأجوراً يجيد استخدام الكاتم . . أيضاً لا أدري .

بيد أنّ كل هذا وارد ومتوقع لمستقبل طفل يعاني الفقر والحرمان والإهمال . طفل فاقد للرعاية الصحية والاجتماعية ويشكو النبذ وسخرية الآخرين ماذا سيكون مستقبله؟ بالتأكيد إما جلاّد ، أو إرهابي ، أو حرامي على أقل تقدير .

لكني أخشى ما أخشاه أن يكون هذا الملعون قد ضحك علينا وركب موجة السياسة . أخشى أنّ حسون الدردة هذا قد تسلّل إلى حزبٍ ما ، وصار ممثلاً للشعب! إي والله ، أخشى أنّه صار حزبيّاً يأمر وينهى .

حينها فقط يحقّ لي أن أقول لكم اذهبوا إلى مقرّ الحزب ، قفوا أمامه ، اخلعوا بناطيلكم . . بولوا .



أبو السحورة

أصعب مهمة كانت تواجهني أيام الخدمة الإلزاميّة في الجيش هي الخفارة الليلية . كم مرة حاولت التملّص من هذا الواجب المزعج ولكن دون جدوى ، فقد كان رئيس عرفاء الوحدة نايب ضابط مهدي عزار صارماً في جدول الخفارات والواجبات الليلية ولا يقبل التقصير .

آخر خفارة قضيتها في باب نظام مدرسة الدروع كانت برفقة نايب عريف سعدي جبارة . كانت ليلة من ليالي شتاء قضاء بيجي الباردة . رفيقي نايب العريف كان خدوماً جداً وأنيساً جداً ، يحب السوالف ويبرع في القصّ والحكي . يساعده في ذلك وجهه الضاحك ووزنه الثقيل الذي لا يقوى معه على غير الحكي وثرد الكلام .

خدّر لنا أبو سعود قوري شاي على الهيتر وقدّمه في (شيشة معجون) فارغة لعدم وجود قدح في غرفة الحرس . تلفلف كل منّا ببطانية جيش خشنة وأخذنا نرتشف من شيشة الشاي بالدور ، رشفة لي ورشفة له ، ثم بدأ صاحبي يسرد لي حكاية عمّته فطم .



حدثني سعدي بن جبارة أن عمّته فطم أصابها يوماً مسّ من الجن وصارت تهذي بكلام غير مفهوم ، ما وضع العائلة كلها في إنذار جيم ، لاسيما وأنّ فطم كانت مدلّلة أخيها الكبير ، الحاج جبارة . كانت شابة جميلة جداً وضعها أخوها موضع عناية واهتمام . لكنّه كان ينوي تزويجها لابن عمّها «حمّادي الوصخ» على حدّ وصف محدثي ، سعدي .

يقول إنّ عمّته فطم لا ترغب في الزواج من حمّادي لأنّه وسخ ورائحته نتنة ، ولم يكن على وفاق مع الليفة . ويقول أبو سعود أيضاً بأنّ عمّته مرضت بسبب محاولات إجبارها على الزواج من ابن عمها حمّادي ، بل أصبحت تهذي وتضرب رأسها بالحائط وتهدد بشقّ ثوبها والخروج عارية إلى الشارع .

- مسكينة عمتي فطم كانت حلوة وحبّابة وملسونة لوما هذا حمّادي الوصخ ، قال سعدي .

- وكيف أصبحتْ الآن؟

- أووه ، بأحسن حال لأنها تزوجت من جارنا ، المعلم غازي .

- شلون . . شلون؟! سولف لي هاي بروح أبوك؟

أخذ سعدي رشفة وأردفها بطقة تغري بشرب الشاي ششبب طأ . . دورك .

- بعدما هدّدتْ عمتي بشقّ ثيابها أمام الناس ، كتّفها أبي ولفلفها بعباءتها ووضعها في صندوق سيارته الڤولگا وأخذها



إلى سيد حردان أبو السحورة .

قاطعته :

- ومن يكون سيد حردان هذا؟

- سيد حردان شخص معروف في قريتنا والقرى المجاورة ، كان يكتب الأحراز والتعاويذ ويضحك على النساء بالسحر والكلاوات . الغريب في الأمر أنّ أهل القرية كانوا يحترمونه لحسبه ونسبه ، مع أنّهم يعرفون حقيقة كونه دجّالاً يضحك على عقولهم ، قال سعدي وهو يشعل سيجارته الكيلوباترا :

حين أدخلنا عمّتي فطم على سيد حردان قام بإشعال موقد نار أمامه ووضع فيه سيخ حديد وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة . ثم طردنا من الغرفة ليقوم بعمله مع عمتي فطم ويخرج الجن المتلبّس فيها . انتظرنا في الخارج على مضض ونحن نستمع لآهات عمّتي وصرخاتها وهي تتلوّى تحت سياط سيد حردان وسيخه المستعر . وبعد ساعة من الصراخ والتأوّه نادانا السيد ليقول : «تعالوا بويه إخذوا بتكم طلع منها الجن . . صلوااات» .

- كيف ذلك ؟ قلتُ مستفهماً .

- لا أدري ، غير أن السيّد حردان قال لنا بأنّ الجن اشترط أن نوقف زواجها من شخص يُدعى حميد أو حامد أو حمّادي ، وإلاّ سيعود للتلبّس فيها مرة أخرى .

خوف أبي على عمّتي من معاودة الجنّ إلى رأسها اضطرّه لفسخ خطوبتها من حمّادي الوسخ ، وتزويجها لأوّل خاطب يتقدم



لها ، فكان الأستاذ غازي ، معلّم الحساب في مدرسة القرية .

- يا للصدفة! قلت ، فردّ سعدي :

- لم تكن صدفة يا صاحبي .

- كيف؟

- لقد أسرّتني عمّتي فطم في ليلة زفافها أنّها تصنّعت المرض للخلاص من حمّادي ، ولم يكن هنالك جنّ ولا هم يحزنون . قالت إنّ سيد حردان سألها أن تكشف له الحقيقة مقابل أن يساعدها في حلّ مشكلتها ، فوثقت بوعده وحكت له قصة حبّها مع غازي المعلم ، فاختلق السيد فيلم الجنّ وشروطه وطلب منها الصراخ والتأوّه وهو يضرب الأرض بسوطه . . ألم أقل لك بأنه دجّال؟!

- نعم . . دجّال سيد حردان لكنّه لا يستحق الشتيمة يا صاحبي .

- ليش؟!!

- لأنّه دجّال يستغل البسطاء بكتابة الأحراز والتعاويذ والنفث في العقد ، دجّال لأنّه يستخدم اسم جدّه لفرض جاهه وكلمته على أهل القرية ، لكن دجله كالخمر في بعض الأحوال ، فيه نفع للناس . فلولا حردان لما تخلّصت عمّتك الحلوة فطم من حمّادي الوسخ . لا تشتم حردان يا صاحبي لا تشتمه ، وإن كان لابدّ من شتيمة فاشتم من يركب الناس بجاهه وهو بلا نفع ولا دفع! . . ششششب طأ . . دورك .



شي تور

منذ ليلتين والثلج يهطل بغـزارة . المدينة لبـست ثوبهـا الأبيض والطرقـات بدأت تنغلق . ولكن كـان على مـهند أن يصل مقرّ عمله قبل الثامنة صباحاً . كانت يوفري قد أبلغته بنشاط اعتاد موظفوها على القيام به في الجمعة الأخيرة لشهر يناير من كل عام .

تدير يوفري شركة لتوزيع الصحف ، انضمّ إليها مهند مؤخّراً ، بعدما عجز عن الحصول على وظيفة تتيح له ممارسة اختصاصه الأكاديمي . فمهنّد كان يعمل مدرّساً للغة العربيّة ، وليس في النرويج ما يتيح له ذلك .

استيقظ تلك الجمعة مبكراً . صنع لنفسه سندويتش جبن وكوب قهوة ، ثم تناول صحيفةً دُسّتْ له من فتحة الباب . جلس على الأريكة وشرع يقرأ الأخبار وهو يقضم سندويتش الجبن على مهل . قرأ خبرين في الصفحة الرئيسيّة ورماها جانباً . لم تسعفه لغته على فهم ما جاء فيهما ، فمهنّد جديد على هذي البلاد ، لم يمض عليه في النرويج أكثر من عامين . تعلّم فيهما القليل من المفردات والجمل التي لا تعينه على قراءة الصحف .



أبدل ثيابه وتجهّز للخروج . أطلّ من النافذة ، فوجد المدينة قد اكتست بالبياض ، والثلج لا يزال ينهمر . نظر إلى مقياس الحرارة المثبّت على زجاج النافذة ، فكان يشير إلى الخامسة والعشرين تحت الصفر . عاد إلى الخزانة . ارتدى معطفاً صوفيّاً طويلاً ، وقفّازين جلديين مبطّنين بالفرو ، ثم وضع على رأسه طاقيّة محاكة من الصوف لها ذؤابتان تتسربلان على الأذنين لحمايتهما من البرد .

في الواقع ، لم يعش مهنّد أجواءً كهذه ولم يعتد عليها بعد ، فهو قادم من مدينة حارّة ، رطبة ، يرسل عليها الخليج نسماتٍ تضيق بها الصدور وتصير الأجساد دبقة . مهنّد جاء من البصرة ، جنوبي العراق . لم يرَ الثلج في سمائها يوماً ، ولم يتزحزح مقياس الحرارة فيها دون العشرين . هذا في الشتاء طبعاً ، أما في الصيف ، فحدّث ولا حرج .

أما في مدينة ترومسو التي يقطنها منذ عامين ، فالشتاء قاس جداً ، والبرد لا يرحم . كان عليه أن يرتدي ثياباً سميكة ومبطّنة ، وأن يلبس أحذيةً مدّعمة بالمسامير كي لا ينزلق عند المسير . فالطرقات هناك تتحوّل في الشتاء إلى ما يشبه المزالج ، يصعب السير فوقها .

«تباً لكم . . كل هذا لا يعنيكم؟!» قال مهنّد وهو يربط جزمته ذات المسامير ويهمّ بالخروج . فالثلج والبرد لا يعني النرويجيين في شيء ، بل يبتئس الكثير منهم إن تأخّر هطول الثلج في الشتاء .



كان عليه أن يحضر معه مزلاجاً ومساند للتزلّج ، فقد أبلغته يوفري بأنّهم سيخرجون في رحلة (شي تور) صباحيّة كما جرت العادة في مثل هذا اليوم من كل عام . سيرتدي الموظفون ثياباً خاصة بالتزلّج ويخرجون في نزهة صباحيّة تحت الثلج بقيادة يوفري .

يوفري سيّدة نرويجية في العقد الثالث من العمر . شقراء لها نونة كأنها العيد . كانت تهمس حين تحكي وتبتسم حين ترضى . وقفت مع مهند وقفات لم يقفها عنترة بن شداد مع عبلة . لذا فهو مدين لها بالكثير ، مما دفعه ألاّ يتخلّف عن دعوتها للمشاركة في تلك النزهة وإن بدت قاسية بالنسبة له . لكن العائق الذي كان يقف أمامه لتنفيذ رغبة يوفري هو جهله المطبق في أصول وقواعد التزلّج على الثلج ولمسافات طويلة . فمهنّد لم يجرّب هذه الرياضة من قبل ، ومن أين لبصريّ أن يجرّبها؟! غير أنّ الحظّ قد أنقذه في ذلك الصباح ، وكانت يوفري قد حضرت مبكراً إلى العمل ، فبادرها :

- صباح الخير يوفري .

- صباح الخير مهنّد ، حسناً فعلت بقدومك ، ستكون نزهة جميلة .

- لكنني لا أفقه قواعد التزلّج ، كيف لي الذهاب معكم؟!

- لا عليك ، سأجعل منك بطل العالم في الـ شي تور . . ثق بي .



- أمري لله .

هكذا تعوّد مهند، عندما يُعدم الحيلة ويسقط ما في يده، يقول : «أمري لله» .

حضر الجميع وتجهّزوا للنزهة السنويّة . استقلّوا سيّارات الشركة وانطلقوا باتجاه سلسلة جبال كولسيت . كانت جبالاً وعرة تغطّيها أشجار الصنوبر المحمّلة بالثلج . توقّفت السيّارات عند أطراف الغابة وشرع الجميع بارتداء التجهيزات والبدء بالتزلّج . ساروا على مهل بادئ الأمر حرصاً منهم على البقاء ضمن سلسلة بشريّة تتحدّى قساوة الطبيعة، ثم بدأوا بالإسراع والتسابق فيما بينهم، عدا يوفري وتلميذها الكسول، مهنّد . كانت يوفري تنقل قدميها ببطء شديد وتطلب منه أن يقلّد حركتها، لكنه كان ثقيلاً جداً . وبعد ساعة من الحركة الثقيلة والخطوات البطيئة توقف مهنّد معلناً استسلامه . جلس على الثلج ونادى على يوفري :

- هذا يكفي . . هذا يكفي . . أرجوكِ توقّفي، فردّت :

- أنا قادمة .

عادت يوفري خطوات إلى الوراء . مدّت يدها لمهنّد وطلبت منه أن يقف . توسّل مهنّد أن تغادر ويبقى هو، لأنّه غير قادر على المواصلة . لكنّها أبت ذلك وأصرّت على أن تصطحبه معها وتعلّمه التزلّج على الجليد .

أمسكت بيده هذه المرة وصارت تنقل قدميها ببطء وحذر



شـديدين . وسـارا على هذا المنوال حـتـى وصـلا سـاحـة التـزلّج التي سـيتسـتعرض الجميع فيـها مـهاراتهم . كـانت سـاحة كـبيرة على شكل دائرة منجمدة جداً معدّة للرقص على الجليد . «هلا هلا . . إجاك الموت يا تارك الصلاة» قال مهنّد في سرّه وهو ينظر إلى حلبة الرقص المنجمدة ، فهو لا يقدر على المشي في الثلج ، فأنّى له الرقص عليه؟!

رفع الراية مسـتـسلماً وقـال ليـوفـري : «أرجـوك هذه المرة . . سـأكـتـفي بالمشـاهدة» ، فـتـركـتـه يوفـري وارتدت حـذاء خـاصـاً بالتـزلج ونزلت وسط الـسـاحـة تشـارك مـوظفيـهـا الرقص والمرح . كـانوا يتزلجون برشاقة ويتراقصـون بحركـات اسـتعراضيّة أنيقة . كان الواحد منهم يمسك بيده اليمنى يسرى زميلته بينما يلفّ يده اليسرى على خصرها ويتراقصان . بينما يجلس مهنّد خارج الحلبة يحتسي الشاي الساخن ويهزّ برأسه على أنغام الرقصات التي يؤدّيها زملاؤه على الجليد .

كانت مديرته ، يوفري هي المميزة بينهم بابتسامتها الجميلة وقـوامـهـا المـمـشـوق . «هاي مـهـنّد» لوّحت لـه من بعـيـد ، فـردّ ملوّحاً : «هاي يا بعد روحي» . وبعدما اشتد الوطيس وتدروشوا بالرقص على الجليد جاءت نحوه متغنّجةً :

- ميمو ، هكذا تحوّل اسمه بعدما تدروشت يوفري .
- عيون ميمو ، ردّ مهنّد .
- تعالَ ارقصْ معي .



- لا أستطيع ، صدّقيني .

- لا عليك ، فقط البس حذاء التزلّج واعطني يدك .

فعل ميمو ما طلبت منه يوفري ، لبس التجهيزات واتكأ على ركبتيه محاولاً القيام . أمسكت به يوفري وأعانته على الوقوف فوق الجليد . ثم بدأت تراقصه ببطء شديد .

- ضربة الذراعين يجب أن تكون سريعة . . تقدّمْ ثلاث خطوات قصيرة على الجليد . . يَسّ يَسّ . . الآن انزلاق طويل ، ثم دوران وقفزات خلفية . . هيّا هيّا ، قالت يوفري وهي تمسك بيده .

وشيئاً فشيئاً بدأ ينزلق مهنّد على الجليد بسعادة غامرة . كان يصرخ وهو يحتضن خصر يوفري ويدوران حول بعضهما وسط الحلبة . كان كلما أوشك على السقوط جذبته يوفري إلى صدرها بقوة فيصرخ بصوت عالٍ : ياهّوووووو .

وبعد ساعة من الرقص على الجليد كان فيها صدر يوفري خير ساند وشهيد على مشاغبات ميمو وتمثيله الوقوع ، انزلقا نحو الحافة . أفلت منها بلا شعور وراح يدور ويدور ويدور غير آبه بصرخاتها وتحذيرها من الوقوع في الوادي السحيق . كان يضحك بهيستيريا عالية وينزلق بسرعة شديدة نحو الحافة ، والكل في ذهول . وبعد دورتين سريعتين فقد مهنّد التركيز فالتفّت ساقاه ببعضهما وسقط من حافة الجبل . كان الارتفاع شاهقاً والوادي عميقاً تغطّيه الصخور القاسية والأشجار



العالية . تهاوى ميمو المسكين من الجبل نحو بطن الوادي وتحوّل إلى ما يشبه القطة الميتة بين الأشجار . كادت تلك السقطة أن تودي بحياته لولا أن سارع المسعفون في إنقاذه . لقد هبطت عليه طائرة الإسعاف بعدما اتصلت بهم يوفري وتم نقله فوراً إلى صالة الطوارئ في مستشفى ترومسو .

وبعد خمسة أشهر قضاهن مهنّد في المشفى ، خرج مقعداً على كرسي مدولب . كانت يوفري تدفع الكرسي وتهمس في أذنه : «ألمْ أقل لك بأنّي سأجعلك بطل العالم في الـ شي تور؟!» فيردّ : «أمري لله» ويضحكان .



نذالة

ذات نهار قرّر محمد دگمة أن يعشق عروبة ابنة الرفيق خزعل ، أكبر حزبي في المنطقة . كانت عروبة ، ابنته الوحيدة ، حلوة كالقمر وترتدي ثياباً تختلف عما ترتديه فتيات المنطقة المسكينات .

أخبرني دگمة يومها بأنه قرّر أن يهجر فطّومة بنت الحارس ويعشق عروبة بنت الرفيق خزعل كخطوة أولى لدخول عالم السياسة .

– حمّودي . . شلون تجيبها للطريق؟ سألته .

– الخطة جاهزة وما عليك سوى أن تثق بقدراتي التكتيكيّة في طرق العشق والغرام ، أجاب .

– أوكي . . تفضّل سولف يا رشدي أباظة .

– اسمع عيني : باچر ناخذ الفريق ونسوّي تصفيات بشارع بيت أبو عروبة . . انا راح أكون مهاجم راس حربة وانتم راح تخلّوني أگوّل كل خمس دقايق ، وبعد كل گول تهتفون باسمي . . ذيچ الساعة راح تطلع عروبة وتحبّ البطل اللي هو انا . . ها ، شلونّي؟



- لوز . . خوش خطة . . باچر ننفذ .

وفي الغد كان الأمر كما أردنا . تجمّعنا أمام بيت الرفيق خزعل الساعة الثانية ظهراً ، وما هي إلا لحظات معدودات حتى اشتغلت ماكنة التهديف حسب الخطة . كان مرمى الخصم فارغاً والدفاع منشغلين بتدخين سيجارة أشعلها لهم دگمة . كان قد سرقها من تحت وسادة جدته وهي نائمة . كانت الحاجّة نزيلة ، جدة دگمة ، تخبّئ علبة سجائرها تحت الوسادة ؛ لأنّها اكتشفت بأنّها تنقص كل يوم سيجارتين أو أكثر . كان حفيدها دگمة يسرق السجائر ويوزّعهن علينا في المدرسة .

مضى على المباراة ربع ساعة فقط ، والنتيجة تشير إلى اكتساحنا لفريق الخصم بعشرة أهداف مقابل لا شيء . كان دگمة يصول ويجول ، والجميع يهتف باسمه ، فسمعنا صرير باب يُفتح . كان باب بيت الرفيق خزعل . حينها علت الهتافات «دگمة . . دگمة . . دگمة» بانتظار أن تطلّ علينا عروبة لتشاهد البطل محمولاً على الأكتاف . لكن هيهات أن تتم خطة رسمها دگمة ، فبدلاً من عروبة خرج أبوها ، الرفيق خزعل . كان يرتدي فانيلةً بيضاء مبتلّةً بالعرق ، وسروالاً يغطّي ما فوق ركبتيه . كان السروال أبيض اللون ماركة «حبيشي» الشهيرة ، وكان أبو عروبة يحمل بيده خشبة طويلة سمك ستة انج ، ويبدو بأنّه قد فاق توّاً من نومة عزيزة .



عندما رآه دگمة هتف : كـمـيــــــــــن . . اشردوا ، فـهرب الجـمـيع بمن فـيـهـم صـاحب الفـكرة ، العـاشق دگـمـة ، إلاّ أنا . عدت لأخذ نعليّ اللذين كنت قد وضعتهما كقوائم للمرمى ، فـفي قـريتنا لـم تكن هنالك مـلاعب نظاميّـة لكرة القدم ، ولا ساحات يكسوها العشب . كنّا نضع حجراً أو نعلاً كشواخص افتراضيّة للمرمى ونلعب حفاةً في الشوارع .

عدت لأخذ نعليّ ، فصاح دگمة من بعيد : «ولِك دگمة اشـردْ . . اجاك . . اجاك» كـانت غـايتـه أن يفلت من الملاحـقة فـيما لو علم أبو عروبة من هو دگـمـة ، فتبرّأ من كنيته ، ورماها برأسي كـالعادة . ولسوء حظي تعثّرت وسـقطت ، فأمسك بي الرفـيق خزعل وأفـرغ غضبـه في جسـدي الطري . كـان يضـرب بالخشـبة ذات السـتة انج ويهـتف : «اليوم اسوّيك دگـمـة من صـدگ» ، بينمـا كـانت عـروبة وأمـهـا تقـفـان خلف البـاب وتناديان : «حيل بيه» .

عدت إلى الدار والدمعة في عيني ، فصديقي الذي ذهبت لمسـاعـدته في كـسب حـبيبتـه ، قـد هرب وتركني بيـد من لا يرحم . أكلت بسـببـه «طنّ كـتل» وعندمـا وصلت الدار أكلت طنّاً ثانٍ من يد أمّي لأنّي رجعت إليها حافياً . . لقد بقي نعلي في الأرض الحرام .



مؤخرة المسؤول

كان موسم الانتخابات في العراق على الأبواب . أدرت محرّك البحث «غوغل» نحو منتدىً ثقافي لطيف ، بعدما مللت من أخبار المرشّحين ومؤتمراتهم الانتخابيّة . كان المنتدى مختصّاً بكل ما هو غريب وعجيب من ممارسات الشعوب وتقاليدهم . استهواني الأمر فلبثت أقلّب أبوابه باباً باباً . قرأت عن عادات الصيد ، والأكل ، والسقي ، والزراعة وغيرها . كلّها كانت لطيفة ، لكنّ أكثر ما شدّني وقضيت فيه أكثر من ساعتين هو قسم غرائب الزواج . طقوس عجيبة غريبة اعتاد على ممارستها بعض شعوب العالم المنسي .

قرأت كيف يتزوج الناس في قبائل غانا . يقومون بربط طالب الزواج مع فتاته معاً ويضعونهما في أرجوحة وسط الغابة ، ويضعون معهما حفنة من النمل الأبيض القارض ويتركونهما ليلة كاملة على هذا الحال . في الصباح يعودون إليهما ، فإن وجدوهما يتسامران ويتحدثان بلطف سويّاً ، سمحوا لهما بالزواج ، وإلا فلا!

اسمعوا ماذا يفعل سكّان جزيرة هاوان ، وهي جزيرة واقعة



في الباسفيك : على الزوج أن يقدّم صداقاً قوامه أكبر عدد ممكن من الفئران المنزليّة! نعم فئران ، وهو أمر سهل جداً لو قارنته بما تفعله بعض قبائل شرق اليابان مثلاً . ففيها يطلب اليابانيون من العريس أن يجلب ثلاثة كيلوات من الذباب صداقاً لمن يرغب الزواج منها ، فيذهب المسكين إلى مجمع النفايات ليصطاد مهر حبيبته أو يلصق حلوى على جذوع الأشجار ليجتمع عليها الذباب فيصطاده!

صدّقوني هذا ما قرأت ، واندهشت مثلكم تماماً ، ولكن أكثر ما أدهشني ضمن تلك المهور العجيبة الغريبة هو ما يطلبه سكان مقاطعة التبت في الصين ، فلهؤلاء عادة طريفة جداً في الزواج . كانوا يضعون العروس فوق شجرة عالية ويقفون في الأسفل حاملين العصي ، ثم يأمرون العريس بخلع سرواله والجثو على ركبتيه ويديه ليضربه أهل الزوجة بالعصي على مؤخرته واحداً تلو الآخر . فإن تحمّلت مؤخرته كل هذا الضرب كان جديراً بالعروس المعلّقة أعلى الشجرة ، لأنّه صبر لأجلها متحمّلاً كل هذا الضرب ، أمّا إذا خذلته مؤخرته ، فليس له نصيب في الزواج!

كان العاشق الحقيقي فقط هو من يتحمّل الضرب وهو ينظر إلى حبيبته في الأعلى ولسان حاله يقول : (دگ عيني دگ) .

في الواقع أعجبتني الفكرة يومها ، فهي مبنيّة على فلسفة



قديمة لسكّان التبت، تقول بأنّ من يتحمّل اليوم يتحمّل غداً. بل لا أخفيكم سراً أنّها دفعتني للتفكير والتساؤل؛ لماذا لا نطبّقها على من يريد الترشح لمنصب رفيع في الدولة مثلاً؟! فلا داعي لكل هذه الدعايات الانتخابية ما دام لا يصدّقها الناخب، ولا يشتريها بفلسين أحمرين. نحتاج فقط أن يخلع السيّد المرشّح سرواله ويجثو على يديه وركبتيه مسلّماً أمره لله والجمهور، فيأتي الشعب ليجلده على مؤخرته، فإن تحمّل ضرباتهم كان جديراً بالمنصب وعليهم أن ينتخبوه، لأنّه سيكون الرجل المناسب في المكان المناسب وفقاً لحكمة سكان التبت «من يتحمّل اليوم يتحمّل غداً»، أمّا إذا كانت مؤخّرته ضعيفة، لا تقوى على عصيّ الشعب، فلا حاجة به إلى الترشح.

ثم إنّ الدعايات الانتخابيّة ستكون ألطف مما هي عليه الآن، حيث ستقتصر على صورة كبيرة للمرشّح مُدبراً غير مُقبل، مع عبارة بالخط العريض: «شكراً لصوتكم.. مؤخّرتي بخدمتكم» أمّا إذا كان المرشّح امرأة، فعليها أن تستعير صورة زوجها وتشير إلى مؤخّرته بعبارةٍ مثل: «متانة.. مطاوعة.. التجربة أكبر برهان».

طبّقوا فكرة سكّان التبت هذي، وسأضمن لكم أمرين: الأول أنّكم ستحصلون على مسؤول قادر على تحمّل المسؤوليّة، والثاني أنّ هذا المسؤول سيكون متواضعاً، لا يضع عينه في عين المواطن، لأنّ الأخير قد ضربه ذات يوم على مؤخّرته.



مدرسة الذكور

في اليوم العاشر من آذار لسنة خمسة وثمانين وتسعمائة وألف حدث مالم يطرأ على بال أحدٍ منّا . كنا في الصف الثاني متوسط في مدرسةٍ ليس فيها جنس أنثى ، لا مُدرّسة ، لا موظّفة ، ولا حتى عاملة نظافة . سبحان الله كانت عبارة عن بناية تعجّ بالذكور انقسموا إلى قسمين : مراهقين يتبادلون صور ميرفت أمين بين طيّات الكتب ، وبالغين شداد غلاظ يتعاملون معنا بالعصا . في اليوم أعلاه دخل علينا زميلنا محمد دگمة بالبشارة . كنا مجتمعين بالطابق الثاني في صف المدخّنين وهو صفّ مهجور نجتمع فيه بين الحصص لتبادل أعقاب السجائر .

دخل دگمة يركض ويصيح : أبشّركم أبشّركم ، ها دگمة شكو؟ سألناه فأجاب مبتهجاً : إجتنا مدرّسة تاريخ تخبّل بدل أستاذ إبراهيم المصري . وبعد أيْمان مغلّظة صدّقناه واتفقنا على خطة تتيح لنا الاستمتاع بجمال مُدرّستنا الجديدة ، الأنثى الوحيدة في غابة الذكور .

في الغد جلب محمد دگمة ركّة (سلحفاة) صغيرة من أجل رميها تحت أنثانا الجديدة . قال سنشغلها بالسلحفاة



ونسنتر أبصارنا على تقاسيم جسدها . عبّوسي الغبي رسم على الحائط قلب حب كبيراً وذبحه بسهم من الأذين الأيسر إلى البطين الأيمن ثم كتب تحته : «الحب عذاب . . قاتل الشباب» .
أنا كان دوري في الخطة دور الطالب الشاطر المحبّوب الذي يكسب حنان معلّمته من النظرة الأولى .

في الفرصة التي تسبق درس التاريخ ، وبينما كنا نتبادل عقب سيجارة شارف على الخلاص ، سمعنا إشارة فاضل خيسة : آريا ريا ، آريا ريا ، ففهمنا أن اللحظة قد حانت . أطفأنا كطف الجگارة و ركضنا للصف بانتظار من سيغنينا عن تصاوير ميرقت أمين وخطر تبادلها السرّي . دخلنا للصف وكلٌ أخذ مكانه إلا محمد دگمة ، بقي مرابطاً على الباب حسب الاتفاق كي يرحّب بالمُدرّسة الجديدة ويصيح بنا : قيـــــام .

خرجت الهيئة التدريسيّة من غرفة الإدارة ، وكان من ضمنهم مدرّسة التاريخ الجديدة . غير أنّ الغريب في الأمر أنّ دگمة نظر باتجاههم ودخل بسرعة للصف ، سد الباب بعصبيّة وقال : «اسمعوا سرسريّة ، الخطّة انلغت واللّي يلعب بذيله انعل والديه» .

قالها محمد وجلس في مكانه . لقد كان الشرر يتطاير من عينيه ولم يجرؤ أحد منّا على سؤاله . لحظات ودخلت علينا المدرّسة الجديدة فكانت المفاجأة . لقد كانت الأنثى المنتظرة التي رسمنا لها الخطط هي الستّ صفيّة ، عمّة محمد دگمة .



أبو الكشمش

بينما كان يضع الجمر على رأس الأرجيلة قال لي :

- تدري؟

- لا ما أدري .

- لا والله ، أحچي جَد .

- إي ، ما تحچي ، منو لازمك؟

- صاير عندك كرش وإذا تسكت عنّه راح يكبر واحتمال حتى جارتك كاترين ما تزورك بعد؟

- والمطلوب؟

- تجي ويّايه على قاعة الجِم .

وكعادتي في التعامل مع نصائح الأصدقاء ، وافقت على الفور . في اليوم التالي ذهبت معه إلى قاعة التمرين القريبة على بيته . تعرّفت على الأجهزة وجرّبتها واحداً واحداً ، ثم بدأتُ رحلتي مع عالم الرشاقة . ركض ، بايسكل ، عقلة ، حديد . . .الخ ، لكنّي وبعد خمسة أسابيع من الركض المضني وحمل أقراص الحديد ، انتبهت إلى أنّ كرشي يزيد لا ينقص ، فقرّرت العزوف وعدم العودة إلى أجهزة الفيتنس المتعبة . عند



الاستعلامات وأنا أسلّم بطاقة العضويّة سألتني جوليا ، الموظفة هناك :

- لماذا تريد ترك التدريب؟

- لم أستفد منه يا عزيزتي ، فوزني بدلاً من أن ينقص صار يزيد!

- حسناً ، هل لك أن تخبرني عن برنامجك الغذائي ، فربما لا يتناسب مع نوع التدريبات التي تقوم بها!

- في الواقع . . ليس لي برنامج غذائي محدّد ، لكنّي بشكل عام أتناول طاوة بيض وطماطة صباحاً ، ماعون رز أبو الكشمش تعلوه نصف دجاجة مقليّة بالزيت في الغداء ، وماعون كبّة سلق مع السوب زائداً زلاطة وطرشي في العشاء ، هذا هو برنامجي الغذائي يا جوليا . أزيده أحياناً نصف كيلو كعك أبو السمسم مع الشاي عصراً ، وكيس نمنمات على فيلم السهرة . . فقط .

- طيّب يا عزيزي ، وبرنامجك التدريبي ، ماذا كان؟

- كل يوم أركض ألفين متر وأقوم بتمارين بطن عشر مرّات .

سكتت جوليا . أخذت منّي بطاقة الاشتراك . شطبت على اسمي في الشاشة أمامها وقالت حانقةً : «تضرب رز أبو الكشمش وكبّة ودجاج وبيض ، وتأتي هنا لتركض كيلوين فقط وتعترض؟! أمرك عجيب!»



- ما العجيب في الأمر يا جوليا؟ سألتُ .

- لا شيء يا عزيزي . . لا شيء ، ردّت ، ثم ناولتني كرّاساً صغيراً وقالت : خذ هذا الكرّاس يتكلم عن أسباب أمراض السكّري والضغط والذبحة اقرأه جيّداً ، علّه ينفعك .

أخذتُ الكرّاس بلا كلام وهممت بالخروج ، وعند الباب صاحتْ خلفي جوليا : «عود خابرني إذا ضعفت . . أبو الكشمش» .



دار دور.. الله أحد الله الصمد

الحاجّة أم ياسر معلّمة عراقيّة تقيم في النرويج . عاطلة عن العمل وحاصلة مؤخّراً على التقاعد لأسباب صحية . اقترحتْ ذات يوم إنشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية ، وأقنعت العوائل المقيمة هناك بإرسال أبنائهم وبناتهم للانخراط في برنامجها التعليمي . كان البرنامج باختصار شديد عبارة عن عشر ساعات دراسيّة تتوزّع على يومين ، هما عطلة نهاية الأسبوع ، أي السبت والأحد فقط . فيهما يأتي الطفل إلى المدرسة لتعلم اللغة العربية مقابل أجر يدفعه ولي أمره نهاية كل شهر . فعشر ساعات من كل أسبوع قد تبقي الطفل متواصلاً مع لغته الأم كما تعتقد الحاجّة أم ياسر .

إلى هنا الأمور جيدة والعوائل متعاونة ، وقد حصلت أم ياسر على عدد لا بأس به من المتطوّعين للتدريس بلا مقابل . أنا كنت واحداً منهم . وفي الاجتماع الذي أعدّته في بداية الفصل الدراسي ، سألتها عن برنامج المدرسة وما الخطة المعدّة لذلك؟ فقالت : «عيني بسيطة الشغلة ، عدهم خمس ساعات باليوم نقسّمها ساعتين دار دور ، وساعتين دين ، وساعة لعب



وأبوك الله يرْحَمَه» وضحكت الحجيّة مزهوّة بتأييد بقية الحجيّات .

بصراحة لم يرقني الموضوع ، فقلت لها :

- حجيّة ، أنا ما أشوف أكو ضرورة لدرس الدين هنا .

- ليش عيني كفّار خو مو كفّار؟ ردّتْ .

قلت :

لا ، معاذ الله ، ولكن الأطفال هنا من أديان مختلفة ومذاهب مختلفة وإثنيّات مختلفة ، ما يعني صعوبة تدريس الدين في هذه الحالة ، ثم إنّ كل طفل يستطيع أن يتعلم دينه في بيته دون الحاجة إلى مدرسة . لذلك أقترح أن يكون البرنامج على النحو التالي : ساعتين دار دور ، وساعتين عن العراق ، وساعة لعب . عندها سنعلّمهم إلى جانب القراءة والكتابة كيف يحبّون بلدهم الأم ويحترمونه . فإلى متى لا يفقه أطفالنا شيئاً عن وطنهم الأم سوى ما يرونه في التلفاز من مصائب؟! وإلى متى لا يعرف الطفل العراقي أسماء الجبال والأنهار والبحيرات في بلده؟! وإلى متى يظل مطأطئاً رأسه كلما سأله زملاؤه : من أين أنت؟! دعينا نعلّمهم كل شيء عن وطنهم ، وأنا كفيل بهذه المهمة .

في الواقع ، كلامي لم يلقَ قبولاً عند الحجيّة أم ياسر ، لذلك رفضته جملة وتفصيلاً وقالت : «لا عيني لا ، عراق شنو ، إحنه صرنا نروجيين بعد» وضحكت ، ثم أردفت :



«وبعدين شنعلّمهم عن العراق ، أشو بلد كلّه زبالة وحرامية . . عزيزي نحن نريد أن نربّي أطفالنا تربية عقائديّة ، ونعلّمهم : دار دور ، واللّهو لحّد اللّهو الصمد» .

هكذا تعتقد أم ياسر ، الطفل في الغربة بحاجة إلى تربية عقائديّة صحيحة تجعله متمسكاً بطقوسه التي تعاني حرباً شعواء على حد تعبيرها ، ولا حاجة لأن يتعرّف إلى وطنه الأم . بل إن الحاجّة أم ياسر دام ظلّها الوارف تعتبر الحديث عن العراق ضرباً من الفضول والجهد الزائد . فما لها والعراق ما دامت (تاكل وتوصوص) في «بلاد الكفر»؟! وعلى الرغم من اطّلاعي التام على سلوك المحروس ياسر وإخوته الذين تربّوا «تربية عقائديّة» وإسهامهم في تشويه سمعة العراقيين هنا ، إلاّ أنّني لم أجادلها في الأمر واكتفيت بالقول : «حسناً . . أنا أنسحب والبركة بالحجيّات ، فيمالله» .

لا أدري كم مرّ على هذه الحادثة ، لكنّي ذات مساء وكعادتي كنت أبحث عن أخبار العراق في مواقع الأنترنت ، فقادتني الصدفة إلى رؤية مالم أتوقعه يوماً . كانت لوحة كبيرة لدعاية انتخابيّة بارتفاع خمسة أمتار طبعت عليها صورة الحاجّة أم ياسر ، ومكتوب عليها بالخط العريض : «انتخبوا المجاهدة الحاجّة أم ياسر ، العراق أولاً» . إي والله هذا ما رأيت وهذا ما كُتب : مجاهدة والعراق أولاً!

أغلقت جهاز الحاسوب وقلت في نفسي : «أم ياسر تستلم



راتباً هنا لأنّها هاجرت من العراق ، وراتباً هناك لأنّها عادت إلى العراق ، ومع هذا وذاك تنعته بعراق الزبالة والحراميّة! حقّاً إنّها تربية عقائدية . . دار دور . . اللّهو لحّد اللّهو الصمد» .



بين ماريا وسعديّة

على الجدار تنتصب شهادة أنيقة يحتضنها برواز أنيق . هي شهادة التخرّج من الجامعة التي حرص محمود على أن ترافقه في حلّه وترحاله . كادت ذات يوم أن تودي به إلى السجن على الحدود في منفذ طريبيل بين العراق والأردن . قال الضابط في النقطة الحدوديّة بأنّ الصورة في الشهادة لا تشبهه وعليه الانتظار حتى التحقّق من هويّته وجواز سفره مرة ثانية .

ربما كان الضابط محقاً ، فالفارق الزمني بين يوم تخرّج محمود ويوم هجرته كان بعيداً . في الواقع لم يكن بعيداً جداً إلاّ أنّه رسم ملامحه على شكله وصارت لا تشبهه .

- هذا ما فعلته أيّام الحصار فينا يا سيّدي ، قال محمود للضابط وهو يستلم أوراقه ويهمّ بصعود الحافلة .

كان سعيداً لاسترداد شهادته بعدما تحقّق منها ضابط الحدود وأرجعها له دون أن يكلّف الأخير نفسه جملة اعتذار واحدة ، لكن سعادة محمود لم تدم طويلاً . فيما بعد ستتحوّل هذه الشهادة التي يعتزّ بها إلى قطعة ديكور تزيّن الصالة . حالها في ذلك حال الكثير من شهادات التخرّج التي جلبها العراقيّون



معهم إلى بلدان الشتات . فهذه الشهادات والوثائق باتت مثار شك وريبة عند دول العالم الآخر ، بل باتت غير معترَفٍ بها عندهم ولا تساوي من حيث القيمة الكثير!

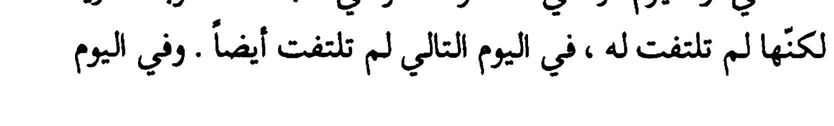
تيقّن محمود من هذا عندما قدّم شهادته إلى جامعة أوسلو . لقد سلّمهم شهادة مترجمة ومصدّقة من الخارجية العراقية ، فسلّموه ردّاً ترجم معناه الى : «نگّعها واشرب مايها» ، وحين سألهم عن السبب أجابوه : «لأن حكومة بلدك لا تريد التفريط بالكفاءات العلمية وأصحاب الشهادات ، لذلك ترفض التعاون في هذا الشأن» !

- ما العمل إذن ، وكيف أعادل شهادتي؟ سألهم فقالوا :

- عليك أن تعيد الدراسة الإعدادية هنا بشكل مختصر لمدة عام واحد ، ثم تدرس عاماً آخر ضمن اختصاصك الجامعي ، لتعود إليك شهادتك من جديد!

وبعد تفكير طويل سلّم أمره لله ودخل المدرسة الإعدادية ، ليكون زميلاً لماريا التي تصغره بعشرة أعوام ونصف العام .

ماريا شابة طموح ترغب في إكمال دراستها لتصبح في المستقبل مقدمة برامج تلفزيونية . كان اختياراً مناسباً لها ، فوجه ماريا حسن وقوامها حسن . وفوق ذلك كله نطقها سليم وخالٍ من كل عيب ، فماذا يريد المشاهد الكريم أكثر من هذا؟!



في أول يوم دراسي لمحمود العراقي ، جلست قربه ماريا لكنّها لم تلتفت له ، في اليوم التالي لم تلتفت أيضاً . وفي اليوم



الثالث نكزها في خصرها سائلاً : «ماكو قلم زايد؟» فانتبهت ، وليتها لم تنتبه . لقد جفلت وكأنها رأت مارداً من نار .

يالله! جفلة ماريا تلك كانت كفيلة بإحباطه عاماً كاملاً . حتى إنّه قرّر لوهلة ترك المدرسة والتوجّه إلى سوق العمل . قال في نفسه بعد الصدمة تلك ، بأنّه سيصلح ما أفسده الدهر . كان بحاجة إلى مبلغ من المال يكفيه لزراعة قليلٍ من الشعر وشفط قليلٍ من الدهون مع شد وتبييض ، وما زاد سينفقه لتعديل أنفه والله المستعان . لكنّ الأستاذ المحاضر قطع سلسلة تفكيره وأنقذه من ارتكاب تلك الحماقة . ماذا فعل؟ لا شيء سوى أن فتح موضوعاً عن الحضارة البابلية وطلب منهم المشاركة فيه . رفع محمود يده ، فأذن له المحاضر بالكلام ، وبدأ يحدّثهم عن حضارة بلده . ساعتها فقط عادت له ثقته بنفسه وانطلق لسانه أمام زملائه . كان من بينهم ماريا التي بدت منصتة لما يقول .

في الواقع كان محمود مزهوّاً وفخوراً بالحديث عن تاريخ العراق ، مما أعطاه نشوةً خففت من (گيج الإحباط) الذي سببته جفلة ماريا . وحين انتهت حصّة التاريخ ، شعر بأنّ ذلك الحديث كان سبباً كافياً عند ماريا لتجاوز شكله (المشقلب) وتحوّله إلى صديقٍ مقرّب . علم فيما بعد بأنّ السبب كان عشقها الكبير لحضارة ميزوبوتاميا . لقد أخبرته يومها بأنّها كم تمنّت لو كانت عراقية بالولادة ، ولم تخفِ رغبتها أمامه بالهجرة



إلى العراق والعيش هناك!

انتهى اليوم الأول بسلام . ودّع محمود ماريا عند باب المدرسة وسلك طريقه إلى البيت . كان طريقاً طويلاً معبّداً بحرفية عالية . تصطف على جانبيه أشجار خضراء معمرة . البيوت ذات نسق واحد وألوان هادئة . تتسمّر في باب كل بيت حاويتان للنفاية : إحداهما سوداء لفضلات الطعام ، والأخرى خضراء لقصاصات الورق .

كان الطريق ساحراً والهواء منعشاً والناس تعلو وجوههم ابتسامة دافئة . كل شيء بدا يومها متناسقاً ، حتى أعمدة الكهرباء انتصبت بشكل تراتبي جميل وهي تحمل تياراً فائضاً عن الحاجة . هذا كلّه وماريا تشعر بنقص حضاري وتتمنّى لو كانت عراقية بالولادة!

هذه الشابّة الحلوة قرأت عن تاريخ العراق فأحبّته ، وسمعت بحضارة بلاد ما بين النهرين فعشقتها ، لذا فهي تحلم أن تعيش هناك ، لكنّها لا تدري ما حلّ في العراق من خراب .

«والله لو تدرين يا ماريا!» قال محمود في سرّه ، وهو يقطع الطريق الأنيق إلى البيت . كان يشعر بأنّ ماريا مسكينة كما سعديّة ، قريبته التي فقدت بصرها من العوز وأمست عجوزاً قبل الأوان . سعديّة التي تعيش في (لبّ الحضارة) مازالت تسكن بيتاً طينيّاً ، سقفه (چندل) وأرضه حصير . وما زال محمود يتذكّرها كلّما رنّ اسم العراق في رأسه .



هاتان المسكينتان دفعتاه أخيراً للتفكير جدياً بالاتصال بالخارجية العراقية ، لا لتصديق شهادته هذه المرّة ، بل للتعاون مع السلطات النرويجية لاستبدال ماريا بسعدية .



قرّب يا ولد.. اضحك يا ولد

اضحكْ على الدنيا قبل أن تضحك عليك . هذه العبارة كانت مكتوبة بأصباغ البوية على عربة فلافل في ساحة أم البروم بالبصرة . ولأنّي من عشّاق الفلافل أيّام الجامعة كنت أقرأها كل يوم عند «عماد أبو الفلافل» . كان عماد ينادي على بضاعته بنداء ملفت لا يخلو من سخرية . كان يصيح بصوت جنوبي دافئ : «قرّب يا ولد . . اضحك ياولد» وكأنّه يبيع سرّ الضحك كما تشي به وجوه الناس المتحلقين حول عربته .

في الواقع أعجبتني تلك الحكمة أكثر من فلافل عماد ، لذلك حفظتها وآمنت بها وحاولت تدريب النفس عليها . كنت أستحضرها كلما وقفت لاستقبال مفاجأة غير سارّة مثل (انت مثل أخوية) تقولها زميلتي الجميلة ، أو عندما أمدّ يدي لجيبي فلا أجد سوى ألف دينار ، هو آخر ما تبقّى من مصروفي الشهري ، ولا زال الشهر في غرّته ، أو عندما يقول الأستاذ في القاعة : الامتحان open book ، فتغدو البراشيم التي أعددناها (بولة بشطّ) .

مع كل هذه المواقف ، كنت أضحك إيماناً منّي بمقولة عماد



أبو الفلافل «اضحك على الدنيا قبل أن تضحك عليك» .

بالطبع قد لا تعدّ هذه الأمور التافهة مصائب ، ولكنّها كانت تمريناً للتعامل مع بلاوى أكبر ، فقد ضحكت بعدها على مصائب واجهتني في الجيش والعمل والسجن . أطرف ما يحضرني منها تلك الليلة التي جاء فيها مفوّض الأمن ، نجم السجّان ومعه اثنان من الحرس ليأخذني من القاووش إلى غرف التحقيق . كان القاووش عبارة عن غرفة بمساحة عشرين متراً مربعاً حُشرنا فيها نحن الأربعة وستّون سجيناً ، متعاقبين على الجلوس والوقوف . كان في ركن الغرفة تواليت بمساحة متر مربع دون سقف ، له باب من أكياس قماش مخاطة ، وقرب الباب يوجد (حِب) فيه ماء ، نشرب منه ونغتسل منه ونستخدمه في التواليت أيضاً . كانوا يملأونه مرتين في اليوم وإذا نفد ماؤه وطلبنا المزيد ، جاء الجواب (يطبّكم مرض) ، فلا حاجة للماء ما دام القمل والبراغيث والقراد تملأ أجسادنا؟!

نادى مفوض نجم : «ميّة وسبعة وخمسين» كان هذا رقمي الذي استبدل به اسمي ، فقلتُ نعم سيدي . قال : «تعال ابن القندرة طالبيك بالتحقيق» . شدّوا وثاقي ووضعوا عصابة على عيني واقتادوني إلى غرفة التحقيق . ابتسمت عندما فكّوا العصابة عن عيني حينها لأنّي رأيت أعتى محقق في مديريّة الأمن آنذاك . حقّق معي من قبل ، وأعرف جيّداً ما سيفعله بي الليلة .



بعد قاط الشتائم والإهانات قال : «علّقوه بالگنّارة» .

والگنّارة لمن لا يعرفها : شيش حديد معقوف الرأس يثبت في الحائط فوق الباب ، يعلّقون عليه السجين بعدما يوثقون يديه إلى الخلف ، فيتدلّى جسده المربوط بسلك الكهرباء .

علّقني الجلاّدان العملاقان بالگنّارة ، بينما انشغل ذلك المحقق بالأكل منفرداً بصينية امتلأت بما لذ وطاب : رز ، مرق ، دجاجة مشوية ، مقبّلات وبطل كولا . كان يأكل وينادي عليّ : «إحچي يا ولّو . . كوتهن» دون أن يوجّه لي سؤالاً محدداً أو تهمة مباشرة . فقط كان يريد التسلية بي وإشباع الساديّة التي تلبست روحه . كنت أصرخ من الألم يومها وكاد قلبي أن يتوقّف من قوة التيار الكهربائي الذي يسري في جسدي . إي والله كدت أموت تلك الليلة وأُغميَ عليّ مرتين .

حين شبع السيّد المحقق ، أمرهم بإنزالي وتعذيبي بطريقة تدعى الخيگانيّة وهي طريقة تعذيب لئيمة جداً وموجعة جداً . كان عليك أن تجلس القرفصاء وتمرّر عصا غليظة (توثيّة) تحت ركبتيك وتُشدّ إليها يداك ، فيتحوّل جسدك إلى ما يشبه الكرة ، ثم ينهالون عليك بالضرب بلا رحمة ، مستعملين ما يقع تحت أيديهم من أدوات : (كيبل ، توثيّة ، حديدة ، قندرة) أيّ شيء ، وأينما تأتي الضربة فلتأت!

كان فصلاً قاسياً ، ما زالت آثاره على ظهري ، وكانت ذلّة ما بعدها ذلّة لم تتوقف إلاّ بعدما ملّ الجلاّدان من الضرب



والركل والتنكيل والإهانة . أمرهما المحقّق أن يخرجوني من الغرفة ريثما ينظفونها من الدم والقيء . سحلوني إلى غرفة مجاورة بدت كأنّها مخزن . لكن يبدو أن سوء حالي ومنظر الدماء على وجهي حنّن قلب أحدهما ، فدفع لي برجله ما زاد من طعام المحقّق . كانت بقايا رز ومرق فاصولياء .

كنت جائعاً جداً وبطني خالياً تماماً ، لكنّي كنت مكتوف اليدين فكيف آكل؟!

- سيّدي . . شلون آكل؟! سألت الجلاّد «الحنين» .

- أكُل بسرعة وخلّصنا ، ردّ بعدما فكّ وثاقي .

ورغم الألم والكدمات والدماء التي تسيل من جسدي ، كنت آكل بنهم ، بل كنت آكل وأضحك ، مما أثار استغراب صاحبنا الحنين فقال :

- انت تاكل لو تضحك؟ على شنو تضحك ابن الكلب؟!

- سيّدي . . أضحك لأن محتار شلون راح أصرّف الفاصوليا الليلة!

ظنّ الرجل بأنّي بدأت أهذي ، فقدّم للمحقق ضحيّةً أخرى حتى انتهتْ حفلة التعذيب تلك الليلة .

ضحكتي تلك قد خفّفت عنّي ألم التعذيب وفقاً لحكمة عماد أبو الفلافل . أما ضحكتي اليوم أمام التلفاز فقد خفّفت عنّي مصيبة الاستماع لشاب وسيم يبرق من الترف ، كان



يشرح للجماهير المحتشدة أمامه معنى الجهاد . ضحكت كثيراً لحديثه عن الجهاد والنضال والعذابات التي عانى منها يوم كان معارضاً للسلطة . وأقسمت وأنا أضحك بأنّ هذا الوسيم لم يسمع بالگنارة ولا الخيگانية ، ولم يذق استه يوماً طعم البطل ، وليس على جسده من أثر غير أثر النعمة . لكنّها السوق يا سادة وكلٌ يصيح على بضاعته : «قرّب يا ولد . . اضحك يا ولد» .



نصيحة كاسبر

في يوم من الأيّام ارتفع عندي ضــغط الدم ، مما اضطرّني إلى الاتصال بالطبيب وحجز موعد سريع . كان الأمر لا يحتمل التأخير .

طبيبي شاب ثلاثيني ، كان اسمه كاسبر . طويل القامة ، دائم الابتسامة ويشبهني في أمرين : يحبّ الشعر ويشجّع ريال مدريد . لم يكن كاسبر يتصرّف كطبيب مع مريض ، بل كصديق يحاول المساعدة . لذلك أشتاق كثيراً لرؤيته ولا أرغب في توديعه عندما أزوره في عيادته . حين أجلس عنده يبادرني بالسؤال : «كيف أستطيع مساعدتك يا عراقي؟» ، يقولها وهو يبتسم ابتسامةً أريحيّة . أرد عليه ممازحاً : «أتيت لرؤيتك يا نرويجي» فنضحك .

بالطبع ، لقاء كهذا كان كفيلاً بتخفيف الألم عن رأسٍ مثقلٍ بالهموم ، لكنّي ذاك اليوم كنتُ في حالةٍ يُرثى لها ، لأنّ ضغطَ الدم الذي أمسى يعمل كالچواكيچ ، يصعد وينزل ، كان قد أخافني .

سلّمت على كاسبر ، فردّ السلام مبتسماً كعادته .

– كيف أستطيع مساعدتك؟

– دكتور ، يبدو أن ضغط الدم عاد إلى الفوضى مرة



أخرى . . أنا خائف .

- حسناً ، دعني أرى .

- هل أزعجك أمرٌ ما؟ قال ، بعدما فرغ من قياس الضغط .

- هه . . قلْ ما الذي لم يزعجك ، رددتُ .

- اممم ، هذا يعني أنك ما زلت تستمع لنشرات لأخبار!

- بالطبع .

- عليك أن تغادر هذه العادة ، فسماع الأخبار يرفع ضغط الدم ، ويسبّب الاكتئاب في أغلب الأحوال .

- صعب . . لا أستطيع .

- أنا مثلك ، كنت أتابع نشرات الأخبار ، حتى مرضت ، ونصحني طبيبي النفساني بالإمساك عنها!

- طبيبك النفساني؟! صرخت متعجباً .

- نعم . . مشاهدة الأخبار سبّبت لي أزمة نفسيّة جعلتني أراجع طبيباً نفسيّاً . . ما الغريب في الأمر؟!

- عن أي أخبارٍ منعك؟!

- أخبار النرويج بالطبع .

- عجبي ، وما الذي يحزنك في أخبار النرويج؟!

- الكثير منها يسبب الاكتئاب .

- مثل ماذا؟!

- ليس لديّ وقت لتعدادها ، ولكن خذ مثلاً : في العام الماضي احترق بيتان وشقة في المدينة .



- وبعد؟!

- ارتفع سعر البنزين في الصيف كروناً كاملاً .

- فقط؟!

- تعطّل القطار ذات نهار بين مدينتين كبيرتين وتأخّر المسافرون ساعتين عن مواعيدهم ، بالإضافة إلى عدة حوادث مرورية ، أليست هذه أخبار محزنة ؟!

قهقهت بصوت عالٍ حالما انتهى كاسبر من تعداد أخباره المحزنة التي تجلب الهمّ والغمّ إلى قلوب النرويجيين الطيّبين ، لكنّي شعرت بأنّه قد تضايق ، فبادرت للاعتذار :

- آسف ، لم أقصد الاستخفاف بكلامك ، ولكن يا عزيزي ، أخبار كهذه التي ذكرتَها لا نشاهدها في نشرات الأخبار هناك ، بل يبثّونها كفواصل إعلانيّة يريحون بها المشاهد ، لذلك فهي لا تسبّب الاكتئاب ، بل العكس ، تفرفش المشاهد . . اطمئن .

أغمض عينيه ورفع حاجبيه مستغرباً ، ثم فتح الدرج وأخرج علبة دواء صغيرة . ناولَني قرصاً مهدئاً وقدح ماء ، وطلب منّي الذهاب غداً إلى المختبر لإجراء تحليلات عامّة لمزيد في الاطمئنان .

قال وهو يودّعني عند الباب : «عليك الإكثار من شرب الماء والتقليل من مشاهدة نشرات الأخبار ، فالعمر ينتهي والأخبار لا تنتهي يا عزيزي» صدق كاسبر .



بلد الزهور

في الصحيفة أمامي خبرٌ عن احتلال النرويج للمرتبة الأولى عالمياً في شراء الزهور. ليس غريباً، فأنا وحدي أشتري نصف طن من الزهور شهريّاً. كل شهر أستلم كمّيتي من زهرة التوليب بألوانها المختلفة. أصفّ الشتلات الصفراء على جانبي الممرّ الضيّق الذي يفصل بيني وبين جارتي كاترين، بينما أعلّق الحمراء منها على نوافذ البيت، أما الزهور البيضاء فأزيّن بها البالكون وما تبقّى أضعه على مائدة الطعام.

ذات يوم وبعدما انتهيت من صفّ أزهاري، دعوت كاترين لتناول قدح شاي. قدّمت لها مع الشاي صحن كليچة بائتة من العيد الفائت وجلسنا في البالكون نتسامر.

- شنو قصتك مع التوليب أيّها الجار الطيّب؟ سألتني كاترين.

- هذه عادة عراقيّة يا صديقتي، أجبتُ.

- كيف؟

- العراق يا عزيزتي يستورد سنويّاً عشرين مليون طن من زهرة التوليب.



- ماذا يفعل بها؟

- ماذا يفعل بها؟! (أعدت سؤالها ساخراً) . . يزرعها طبعاً . . يزرعها على شكل شتلات ملوّنة ، يزيّن بها الساحات العامة والبساتين والحدائق المنزليّة .

أخذتُ رشفةَ شاي وتابعتُ :

- العراقيّون ياكاترين من هواة زراعة الزهور ورشّ الحدائق بـ(الصوندة) .

- وماذا تعني الصوندة؟ قاطعتني .

- تعني خرطوم السقي يا كاترين ، فالماء في العراق لا ينقطع عن المنازل ، والشعب هناك يحبّ رشّ الماء بالصوندة وقت العصر عادةً!

أكملت جارتي شايها وسألتني سؤالاً مباغتاً :

- هل أنت سعيد في النرويج؟ فأجبتها :

- ممممم بصراحة النرويج حلوة وتشبه العراق من حيث الأمان والخدمات ، لكنّ هنالك فرق في الرائحة . . رائحة العراق أطيب .

- لماذا؟

- لكثرة ما نزرع من زهور التوليب هناك ياعزيزتي .

صمتت المسكينة . أطفأت سيجارتها ، ثم ذهبت وتركتني بلا وداع وعندما ناديت خلفها :

- إلى أين يا كاتي؟! لم أكمل حديثي بعد .



أجابت :

– مو سوشك (تقصد مو صوچك) .

عدتُ إلى مقعدي . رشفت ما بقي في كوب الشاي وأشعلت سيجارة . سحبت نفساً طويلاً ونفخت الدخان إلى الأعلى وقلت في نفسي : «يا لها من مسكينة! لم تصدّق كلامي عن العراق . . لقد فاتها الكثير!» .



مهامص وملامص(*)

منذ يومي الأول في الصفّ الخامس الأبتدائي ، بدأ عندي المْهامَص والمْلامَص ، ولولا عقوبات أبي ، لَفَلَتَ عياري مبكّراً . بَيد أن المشكلة الوحيدة التي كانت تواجهني هي تحاشي زملائي ، المنحرفين منهم لي ، والسبب هو خوفهم المفرَط من عصا السيّد المدير ، أبي .

تصوّروا أني كنت أبحث عن صديق سوء يدلّني على درب الانحراف لكنني لم أجد! كان الجميع يتحاشى التعاطي معي في هذا الحديث ، عدا محمّد دگمة جزاه الله عنّي خيراً ، لم يقصّر معي وقال : «أبو الزوز ولا يهمّك اعتبر نفسك منحرف من باچر» .

كان أول درس شرحه لي أستاذ دگمة هو : كيف (تُصَچّم) الفتيات الجميلات؟! وأول تصچيمة تعلمتها كانت : «كلّ هالرشاقة وما تتشاقه؟!» . في الغد ألقيتها على مسامع سلوى الحلوة بنت سعدون القصّاب ، فردّت : (اِلغسِل) ، مع إشارة بيدها تعني : أومّممداك . ليس مهماً ، المهم هو أنّ الدروس كانت شغّالة وكلّ يوم معلومة جديدة وخطة جديدة .



مسكين دگمة تعب كثيراً معي ورغم ذلك لم يستطع إدخالي في قلب فتاة . لذلك اقترح عليّ ذات يوم أن أدخّن السجائر . . قال :

- اسمع أبو الزوز ، انت مايفيدك غير التدخين .

- ليش محمد؟

- لأن البنات يحبّن الولد الحاط جگارة صفح بحلگه ، هاك هاي جگارة بغداد ، ورِّثها و روح انتظر الحَلّة بعد ربع ساعة ويحلّن الطالبات من المدرسة .

ولأنّي كنت أثق بخبرة محمد دگمة ، أشعلت السيجارة ووقفت بانتظارهنّ بالحَلّة . غير أنّ أمراً جديداً لم يحدث ، ولم أنل حتى التفاتة من واحدة منهن . وكأنّهن قد اتفقن عليّ .

رجعت في الأثر خلف صديقي كي أخبره بفشل خطته ، وإذا بي أرى عاشقَين متراصّين خلف حائط المدرسة . كانا متقاربين يتبادلان قُبَلاً خاطفة . دنوت منهما فكانت المفاجأة! لقد كانا محمد دگمة وسلوى بنت سعدون الگصّاب . عندما أحسّت بوجودي هربت! إي والله .

- ها ولك دگمة ، أشو كارص بسلوى ، هيّ هاي الخُوّة مالتك لو بعد غيرها؟ عاتبته فأجاب :

- يا أخي انت صوچك ما تعرف تضبّطها .

- انت مو گتلي حط جگارة بحلگك وأوگف بالحَلّة؟



سوّيت مثل ما گتلي وما حصّلت شي ، شسوّي حتى أضبّطها بتّ الگصاّب؟

- الجگارة حطّيتها بحلگك صفح لو عدل؟

- عدل .

- اهاااا ، هذا هو السبب ، انت لو حاط الجگارة صفح وخاصم عينك اليمنى من الدخان چان ضبّطِتْ سلوى وأبو سلوى .

مرّ على هذه الحادثة ثلاثون عاماً ، ولا زلت أضع سيجارةً مائلة في فمي وأخصم عيني اليمنى ولم تلتفت نحوي ربع سلوى . أخشى ما أخشاه أن صديقي محمد دگمة قد سرح بي وألبسني البطيخة منذ ذلك الحين .

يللّه هي ظلّت على دگمة .

(*) المْهامَص : الشقاوة بدافع عاطفي يحدث عندما تزوركم بنت الجيران مع أمّها .

المْلامَص : مْهامَص شديد يحدث عندما تنشغل الجارة مع أمك في المطبخ وأنت تدرّس ابنتها رياضيّات في الغرفة .



معلّمتي ذات الرداء الأحمر

غداً هو عيد المعلّم . الروزنامة تقول ذلك . إنّه الأول من شهر مارس لسنة ١٩٨٣ . سوف لن أشارك زملائي في شراء هديّة المعلّم هذا العام . لقد وفّرت مصروفي لشراء هديّة خاصة لمعلّمتي ذات الرداء الأحمر ، الست سناء الحلوة . كانت قد انتقلت إلينا من البصرة . كان قدومها فتحاً على قريةٍ عُدّ فيها لبس العباءة فرضاً اجتماعيّاً آنذاك .

كانت سناء سافرةً ، تطلق شعرها إلى الريح وتكثر من اللون الأحمر في فساتينها الجميلة . وقعتُ في غرامها منذ أن وضعتْ قدمها في مدرستنا . أحببتها قبل أن تستدير وأرى وجهها . عشقتها من الخلف حين رأيتها تمشي في ساحة المدرسة وشعرها الغجري يتقافز خلفها . وعندما دخلت علينا وصاح مراقب الصف ، محمد دگمة : «قيـــــــام» ، لم أقف . لم تعِنّي قدماي على الوقوف يومها . كنت أرتجف حبّاً .

صدّقوا حكايتي أرجوكم . كنت أظنّها حبيبتي التي عادت بعد فراق ، مع أنني لم أرها في حياتي القصيرة ، بل لم أسمع بهذا الاسم من قبل ، فالأسماء المتداولة في قريتنا وقتذاك :



رسميّة ، كاظميّة ، فوزيّة ، سعديّة ، وكل ما ينتهي بالمقطع إيّـة .

سناء الفاتحة ، كانت حنطيّة بصريّة ، تبثّ الحياة أينما حلّت . أحببتها وظننتها أحبّتني منذ الساعة الأولى ، لذلك قرّرت أن أقدّم لها هديّة منفردة في عيد المعلم . اشتريت لها جواريب نسائيّة شفّافة من بسطيّة رازقيّة الدلاّلة ووضعتها في مظروف أبيض ، ثم دسست معها ورقة صغيرة كتبت عليها : (وداعة أبوي أحبّچ) . في الغد جاءت ساعة الحسم ، وأوشكت مراسيم الاحتفال أن تنتهي . قدّم زملائي هديّة الصف . وزّعت الست سناء قطع الحلوى وعادت إلى غرفة المعلّمات . أخرجتُ هديّتي وتبعتها .

- ست ست ، ناديت خلفها ، فردّت :

- ها يا حلو ، شنو تريد؟

- ست ، هاي هديّة إلِچ . . قلتها وكانت يدي ترتجف حياءً .

تناولت المظروفَ معلّمتي التي ستصير بعد لحظات حبيبتي بشكل رسمي . فتحته ، فكانت جواريب نسائيّة وورقة صغيرة . قرأت الورقة ، فشهقت من الضحك بل كادت تموت! جلستْ على الأريكة ، جرّتني من يدي وهي تضحك ، وضعتْ رأسي على صدرها المكتنز ومسّدت على كتفي : «حبيبي إنت ياحلو ، تحبّني وِلك؟ انا هَم أحبّك يا وليدي . . . .» .

في الواقع ، لم أسمع كلّ ما قالته معلّمتي لأن عطرها



سلب عقلي وأفقدني التركيز . خرجت من الغرفة نصف سكران . كان يقف في الباب صديقي محمد دگمة ، وكان قد أطعمني قبل دخولي قطعتين من البقلاوة الناقعة في الشيرة . سألني بلهفة :

- ها ، بشّر ، بيّضت وجهي؟

- تگول أحبّك يا وليدي ، أجبتُه .

مدّ دگمة بوزه وعفط عفطة طويلة سمعها كل من حولنا ثم قال وهو يهزّ بيده : «عمت عينك ، ما تسوه البقلاوة اللّي تزقنبته» .

لم أردّ على شتيمة دگمة وقتها ولم أفكّر بكلماته كثيراً ، فمفعول العطر لم يفارقني لثلاثة أيام سويّاً ، ولكن فاتني أن أسأله عن علاقة البقلاوة بالدُخلة . . ملعون دگمة كل شي يعرف!



شعَيب

كنت وحيداً كعادتي في السفر الطويل . الرحلة متعبة ، والسفينة ذات العشر طوابق تشقّ بحر الشمال منذ البارحة باتجاه مدينة كولن . كانت الموسيقى القادمة من الحانة صاخبة ، حرمتني من متعة الإنصات إلى صراخ الموج وهو يتحطّم تحت عنفوان Color Line ، السفينة النرويجيّة العملاقة . هبطتُ إلى الطابق السفلي بحثاً عن الهدوء . كانت الكافتيريا شبه فارغة . المسافرون في حفلة رقص مجانيّ في الأعلى . ابتعت فنجان قهوة وجلست أقلّب كتيباً سياحيّاً متروكاً على الطاولة أمامي . لم أنتبه للسترة المطروحة على المقعد الآخر . كان أحدهم يشغل المكان وغادره لتدخين سيجارة على السطح . كان منظري سيّئاً عندما عاد وشاهدني قد جلست على طاولته . اعتذرت منه وهممت بالمغادرة ، لكنّه طلب منّي الجلوس . كان ضجراً هو الآخر .

- أنا شُعيب ، فنلندي من أصل أفغاني ، قال .

- تشرّفنا ، وأنا هيثم ، نرويجي من أصل عراقي ، قلت .

- تشرّفنا ، ردّ شُعيب .



كـانت لغتـه العـربيّة جـيّدة ، تكفي للتـفاهم وزيادة ، لكنّه كان يقلب بعض الحروف فتبدو الكلمات مضحكة نوعاً ما .

- تتكلّم العربيّة بشكل جيّد يا شُعيب .

- شكراً هابيبي .

- أين تعلّمتها؟

- في مـدارس تحـفـيظ القـرآن في كـابول . كـنت طالبـاً في حلقـة دينيّة ومجـاهداً «في سبـيل الله» لكنّي تركت كلّ ذلك وجئت إلى فنلندا .

- كيف كيف؟! هتفتُ .

- نعم . . كنت مجاهداً في أفغانستان وحصل لي حادث غيّر حياتي هناك .

حديث شـعيب طيّر عـصافير الضـجر من رأسي . فـتحت عينيّ الجاحظتين ومددت بوزي مندهشاً . أومأت برأسي طمعاً في سماعه ، ففهم صاحبي ما أرنو إليه وبدا موافقاً على سرد حكايته .

أضاف قطعتي سكر إلى قهوته . حرّكها ببطء وقال :

- كنت يافـعـاً يوم اشـتـبكنا مع الكفّـار على الحـدود البـاكستانية ، وكدت أفقد حياتي . تركني رفاقي أنزف وهربوا إلى شعاب الجبال . لكنّي وقعت بيد الجيش الباكستاني .

- وماذا جرى؟

- رقدت في مـشـفىً عـسكري تحت رقابة مـشـددة ، وفي



المشفى التقيت بالحاج مشرّفي الذي قلب حياتي ونوّر طريقي .

- من يكون مشرّفي هذا؟

- كان شيخاً كبيراً صاحب خبرة ودراية بالدين والدنيا . جلس معي وعلّمني بهدوءٍ ماذا يعني الله وماذا يعني الشيطان ، وما الفرق بين الإيمان وبين ما كنّا نفعله في خلق الله وعباده .

- إي . .

- علّمني الحاج مشرّفي أنّ الجنّة لا تعني أشجاراً وأنهاراً من خمر ولبن ، ولا نادياً ليليّاً يخدم فيه الولدان المخلّدون ، ولا محلاً لبيع الهوى ومعرضاً لحور العين .

- ماذا تعني إذن؟!

- الجنّة عند مشرّفي تعني أن تكون مع ربّك في النهاية راضياً مرضيّاً .

- لكنّ القرآن يصف الجنّة بغير هذا!

- أوصاف الجنّة في الكتب للتقريب ، لا غير .

- عذراً ، ماذا تعني بالتقريب؟ لم أفهم .

- عقل الإنسان لا يستوعب المفاهيم بلا تقريب يا صديقي ، فلا بُدّ من أدوات تقرّب المعنى .

- لم أفهم ، أيضاً .

- ماذا تعني اللذة بالنسبة لك؟

- تعني الكثير .



- هل لك أن تضرب لي مثالاً على هذا الكثير؟

- أكل الطعام لذّة ، ممارسة الجنس لذّة ، الشعور بالحريّة لذّة ، وغيرها وغيرها .

- هكذا نفهم اللذّة ؛ حريّة ، جنس ، طعام ، أمان . نفهم اللذّة أكلاً وشرباً وفراشاً لا غير ، كما الصغير لا يعرف عن اللذّة أبعد من الشعور بأكل الحلوى . ألا ترانا نشرح معنى اللذّة للطفل على أنّها مثل الحلوى؟!

- نعم ، يحصل مثل هذا .

- بالضبط ، هذا ما يفعله القرآن معنا ، يقرّب لنا ما سنناله في الجنّة بالعسل واللبن والنساء والخدم والحشم ، وما تفهمه عقولنا ، لكنّ الحقيقة أكبر من هذا بكثير والجزاء أعظم من طعام وشراب وجنس .

- يبدو أنّك تأثّرت كثيراً بالحاج مشرّفي!

- لا شك ، لذلك هربت من المستشفى .

- هربت؟!

- نعم ، هربت طمعاً في حياة أخرى تختلف عن تلك التي عشتها وسط الكهوف المظلمة . لقد خرجت من المشفى شُعيباً آخر بفضل الحاج مشرّفي . خرجت كارهاً لجنّة تُنال بذبح الأبرياء .

- ولماذا فنلندا؟!

- لا أدري ، لكنّي كنت أبحث عن أرض لم تلوثها الدماء



ولم تفسد هواءها رائحة البارود ، فهداني ربّي إلى فنلندا . هذا البلد الباذخ الجمال أعطاني كلّ شيء ولم يسلب من إيماني قيد أنملة ولم يغيّر عقيدتي البتة . لا ، بل أصبحت أكثر تمسّكاً بديني مما كنته هناك . وهائنذا أمامك ؛ شُعيب الفنلندي ، طالب الدكتوراه في الفيزياء في جامعة هلسنكي العظيمة .

- جميلٌ يا صديقي أن يكون الإنسان مستعدّاً لتبديل أفكاره حين يجد مَن يدلّه على الصواب ، والأجمل أن يستثمر وقته في الدراسة والتعلّم كي يحقق أمانيه ويمسي منتجاً في هذا العالم المستهلِك (قلت وأنا أرتشف ما بقي من قهوتي وأتحسّر على عمر ضاع في الترّهات) ما رأيك بتدخين سيجارة على السطح؟

- حسناً ، تفضّل .

كانت السماء صافيةً في الأعلى إلاّ من نتف غيوم متباعدة . أخرجت آخر سيجارةٍ مسموح لي بتدخينها . لم يسمح لي الطبيب بأكثر من خمس سجائر في اليوم . قدّمتها لشُعيب . لم يقبلها . تحجّج بأنّه لا يحبّ تغيير نوع سجائره .

«بعد أحسن» قلت في سرّي . أشعلت سيجارتي وبدأت أراقب غيمةً بدأت تتشكّل . لقد بدت لي كأنّها رأس إنسان بذقن طويل .

- هل ترى تلك الغيمة؟ سألت صاحبي .

- أين؟



- تلك ، إلى الغرب قليلاً .

- نعم ، رأيتها ، ما بها؟

- ألا تبدو كرأس إرهابي؟

- هاهاهاهاها ، ضحك شُعيب .

- هل تحنّ لزملائك القدامى يا شعيب؟

- من تقصد؟

- الإرهابيين .

- تقصد المجاهدين ، ردّ مازحاً .

- المجاهدين ، الإرهابيين ، سمّهم ما شئت .

صمت شُعيب . أخذ نفساً طويلاً . أعاد رأسه إلى الوراء وزفر الدخان إلى الأعلى . تنهّد وقال :

- أتمنّى أن يأتوا .

- من؟

- الذين يلقّبون أنفسهم بالمجاهدين .

- إلى أين؟

- إلى فنلندا .

- ماذا تقول؟! هل جُننتَ يا رجل؟!

- كلا ، لست مجنوناً ، لكنّهم لو جاءوا إلى فنلندا ، لوجدوا «جنّتهم» التي يبحثون عنها . سيجدون خمراً ونساءً وفاكهة وعسلاً وأنهاراً وأشجاراً وكلّ ما يشتهون . . أليست هذه هي الجنّة التي يريدونها؟



- بلى .

- إذن ، فليأتوا ويظفروا بها بلا قتل ولا ذبح ولا تفخيخ ، ويتركوا أهلنا بأمن وسلام .

- إذا كان هكذا ، فليأتوا كي . . .

- كي ماذا؟

- كي نعود يا شُعيب . . كي نعود . . عن إذنك سأذهب إلى السرير علّني أنام قليلاً .

- إذنك معك هابيبي . . ردّ شُعيب وتنهّد .



ماركوس لا ينفخ

في القطار المنطلق من العاصمة أوسلو باتجاه مدن الشمال النرويجي ، ركب معي يوماً شاب ينحدر من أقوام الساما الشماليّة . كان طيّباً ، متواضعاً ، بسيط الهيئة ، ومرحاً . في الواقع كنّا متقاربَين كثيراً ، ليس في العمر فحسب بل في الشكل أيضاً ، باستثناء لون البشرة طبعاً ، وشكل الأنف وحجم الكرش والطول والوزن وسُمك الحاجبَين . . فقط .

ولأنّنا متشابهان ولأن ما تشابه يجتمع ، اجتمعنا ، فكان بيننا ولله الحمد تطابق في الرؤى والتصوّرات . تبادلنا يومها حديثاً شيّقاً وقضينا وقتاً طيّباً في النقاش والأكل والضحك . لكن الغريب في الأمر أنّ رفيقي هذا لم يتحدّث عن نفسه قط ، ولم ينفخ بذاته البتة . لم يعرّفني على طبيعة عمله ، ولا مستوى تعليمه ، ولم يقل لي من أين جاء وإلى أين يذهب . ورغم التشابه الكبير بين ذاتينا إلاّ أنّ أناه كانت شبه معدمة في حديثه . على العكس منّي تماماً . ولحذاقته اكتشف الأمر مبكّراً ، فوهبني ما بقي من الوقت لأمارس عادتي الشرقيّة في التباهي والتفاخر والتبجّح والنفخ .



كان ماركوس، وهذا اسمه يستمع بإصغاء ويطري بكرم، حتى شعرت لوهلةٍ بأنّه شخص ساذج، لا حظّ له في الثقافة والأدب والمعرفة. ولكن عندما أوشكت الرحلة على النهاية تلقّى ماركوس مكالمة من محطة الإذاعة النرويجيّة. أجاب بأنّه سيصل في الموعد المقرّر، ثم أنهى المكالمة. عندها سألته متطفّلاً:

- عذراً أبو الشباب، ما طبيعة عملك؟ وهل ستحلّ ضيفاً على أحد البرامج الإذاعيّة؟ فردّ وهو يبتسم:

- يبدو أنّك حديث عهد بهذي البلاد يا عزيزي، فأنا صحفي وإعلامي وكاتب مشهور. لي منذ عشر سنوات عمود يومي ثابت في أشهر صحيفة نرويجيّة، وأعدّ برنامجين ثقافيين على القناة الثانية، وأنجزت حتى الآن خمسة كتب، ثلاثة منها في التنمية البشريّة وواحد في الانثروبولوجيا التطبيقيّة، والخامس في أدب الطفل. كذلك لي مشاركات واسعة في الصحف والمجلّات العالميّة، مع بحوثٍ علميّة مطبوعة هنا وهناك.

- امممم.. لطيف، وأين أنهيت تعليمك يا ماركوس؟

- للأسف، لم أنهِ تعليمي بعد، فأطروحة الدكتوراه بقي لها فصل كامل كي تكتمل. لي فقط شهادتا ماجستير، واحدة في الإعلام المرئي وأخرى في التنمية البشريّة.. أعتذر منك فقد اقتربت من محطتي، سأستعدّ للنزول.



- اخذ راحتك بعد روحي .

- أراك بخير . . إلى اللقاء .

- إلى اللقاء ورحمة الله وبركاته .

سمعت فيما بعد بأنّ ماركوس قد أضاف لملفّه المهنيّ صفة أستاذ أكاديمي . . أضافها بهدوء طبعاً .



خمس دجاجات

يومَ سيق أبو ليلى القهوجي إلى الجبهة ، وقف وسط الدار ليودّع بناته الأربع . كان يمسك بالواحدة منهن يقبّلها ويشمّها من عنقها شمّة طويلة ثم يطبع على يدها ساعةً للذكرى . كان يطبعها بأسنانه . وحين فرغ منهن دلف إلى المطبخ لتوديع زوجته ، أم ليلى . كانت تبكي وهي تجهّز طبقات السفرطاس الذي سيرافق زوجها إلى الجبهة في قاطع شرق البصرة . طهت له وقتذاك ديكاً محشوّاً بالرز والكشمش مع مرق الفاصولياء الذي يحبّه ، ثم دسّت معهن كيس خبز حار وباقة فجل مغسول .

حضنها أبو ليلى وقبّلها وأمسك بيدها ليصنع لها ساعةً فأبت واجهشتْ بالبكاء ، فقال :

- ما بكِ؟ هل تبكين على فراقي؟

- لا .

- تبكين على بناتنا؟

- لا .

- على رزقنا الذي سينقطع؟



- لا لا .

- إذن ، على ماذا تبكين يا امرأة؟

كفكفت أم ليلى دموعها وقالت بحزن وانكسار :

- أبكي على الدجاجات ، سينمن الليلة بلا ديك .

ضحك أبو ليلى ضحكةً مجلجلة . حضنها بقوة . شمّها من عنقها ثم طبع على رسغها ساعةً بأسنانه وخرج . عند الباب اقترب منها وهمس في أذنها :

- أم اِللول لا تخافين ، الديچ راجع راجع .

فقالت وهي ترشّ خلفه طاسة الماء :

- ترجع سالم بعد روحي .

بعد ستين يوماً باعت أم ليلى دجاجاتها الخمس واشترت بثمنهنّ خمسة أثواب سوداء . كان هذا في غرّة شهر تموز لعام ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف .




مكتبة
الفكر الجديد

الفهرس




مكتبة
الفكر الجديد

A BOVE THE LAND OF BLACKNESS



قصص وحكايات ساخرة

فوق بلاد السواد

يؤسّس الكاتب أزهر جرجيس شعريّة خطاب نصّه الحكائي على الفكاهة والتهكّم اللذين يميّزان أسلوبه ويمنحانه حضوراً خاصاً وسط مشهدنا الأدبي العراقي الراهن. السخريّة والتهكّم ليسا مقصودين لذاتيهما في نصوص أزهر جرجيس حيث أنّ توظيفهما مرتبط بسياق إنتاج الفكرة وزمن صياغة العبارة التي تخضع، هنا، الى استراتيجيات جمالية منضبطة تبتعد بها عن الإسفاف والحشو غير النافع.

لا تستثني سخرية المؤلف ميداناً يمكن أن تصل إليه، فهي تطال السياسة وتقترب من الدين وتلامس التقاليد من غير أن تدّعي الفلسفة ولا أن تتصنع الحكمة، ذلك أن أزهر جرجيس لا يريد لنصّه، أو هكذا هو ظني، أن يعيد إنتاج شوبنهاور ولا أن يكرر نسخَ بيرغسون. كتابات جرجيس بسيطة، واضحة، ليست متعددة الأبعاد ولعل هذا ما سيضمن لها فرادتها في وسط ثقافي يتغذى على التراجيديا وسياق تأريخي يحسب الموت فعلاً "جاداً" ويسخر من الضحك بحجة كونه موقفاً لا يناسب المرحلة. نصوص هذه المجموعة "فوق بلاد السواد" ذات نكهة خاصة ستفرض وجودها يوماً وتغيّر الوجه الكالح الذي طالما وسم أدبنا العراقي منذ الولادة الى اليوم.

د. حسن سرحان
ناقد واكاديمي




ISBN 978-614-419-623-6